رجولة سامة

أنوار أحمد المردحي

©جميع الحقوق محفوظة.

اسم الكتاب: رجولة سامة.
اسم الكاتبة: أنوار أحمد المردحي.
رقم الإيداع: 2022/110م
الإشراف الفني: أ/ أمجد فائد العبسي.
تصميم الغلاف: محمد نبيل. (instagram: mnabil_art)
تدقيق لغوي: أ/بليغ الطيار. (instagram:baleeg7)
تنسيق داخلي: الحذقة لخدمات ما قبل الطباعة:
(whats:+967730542080) (insta:fahmybook)

يمكنكم التواصل مع الكاتبة عبر:
إيميل:
anwaralmardahi@yahoo.com
فيسبوك:
www.facebook.com/anwar.ah.1656
إنستقرام:
anwar.a7med

الإهداء:

إلى عائلتي التي وهبَتني حرية امرأة كاملة وسط مجتمع مانعٍ النّساء ككلّ للعدَم.

إلى أمي التي إن بقيتْ لي فإني فائزة بكل الخيرِ لا محالة...

وإلى والدي الذي رحل عن الدّنيا بعد أن أكدّ لي قائلاً: "سترى كتاباتُكِ النور يوماً"...

وإلى أخي "بسّام" الذي بكى تعَبي عوضاً عني وقت شعرتُ بالهزيمة، ومنحني الكثير من قوّته لأستمر.

عزيزي القارئ:

أنا أدركُ بأنّ مُحاولة تجاوزك لكل سوء أصابك أشبه بمحاولةِ هرب جندي من رصاصٍ مُصوّبٍ نحوَه، فاشلة بنسبة تفوقُ التسعة والتسعين...

ولكني لم أكتب هذا لأحبطك، بل لأحثّك على الاستمرار حتى يحين نصرك...

لا تكن ضعيفاً ببقائك بِرفقة أمورٍ تستنْزفك!

لا تحتمل جروحَ أشخاص لم يحتملوا الخدش منك!

ولا تبقَ مع أشخاص جاهَدوا لتركك!

لذا، بعد قراءتك لهذه الرّواية أتمنى أن تخلَع نعليك من على رُقعة تعذيبك، وتهرول ناحية النجاة؛ فبقاؤك بداخل جحيمك الحالي الذي لا حلّ له سيُهلكك ولو بعد حين بلا أدنى شكّ.

مُقدَّمة

لم يسمع الكثيرُ من العربِ عن (تور - TOR) ومِطرقَته، ولكن أهل النّرويج قبل المسيحيّة كان لهم اعتقاد بأنّ 'تور' يعبر السماء في عربة يجرها تَيسان خاصته، ليثير العاصفة والصاعقة كلما دقّ بمطرقته، حتى أن الكلمة النرويجية توردون (العاصفة) تتركب من مقطعين (تور-دون) بمعنى (ضجيج تور)، وعلى الرغم من أن تور كان يُعّد إلهاً للخصب لديهم كذلك _إذ له القدرة على إنزال المَطر لينمو كل شيءٍ، وهذا خير مُطلق، كما أن مطرقته كانت بحد ذاتها سلاحاً مستخدماً في الصراع ضد آلهة الفوضى (الجبابرة الخرافية -JOTNARNA)، وهذه جزئية خير أخرى تخصّه_ إلا أنه بقي مصدرَ خوفٍ وتهديد في المقابل كونه من يُثير العاصفة والصّاعقة، ولطالما تخيّلته برأسين، رأس بوجه مبتسم والآخر بملامح عابسة ممثلاً اجتماع الخير والشر على حد سواء...

صحيح أنّ خرافة الأساطير قد اخترعها الناس في وقت كان العلم فيه غير موجود وأن وجودَ آلهة ك' تور' هي مجرد محاولة منهم لشرح ظواهر العاصفة والصاعقة والمطر وزحزحة الجهل بأمرها إلا أنني لطالما ربطتُ هذه الأسطورة بما حدث في حياتي بشكلٍ مجازي...

هنالك نُقطة بداية لكلّ هذا الخراب الواقفة أنا بداخله..

هناك "تور" مُتحكّم بحياتي، يُثير فيها شدة العواصف وخوف الصّواعق وخير المطر، كما يهبَني حماية واقعة تحت كنف سلاحهِ أحياناً.

***

"كان عليّ أن أجدَ شيئاً واحداً لا يرفضني على الأقل، كان علي الهرب من كل الأماكن التي لا تستدعي سوى مزيدٍ من الشعور بالهزيمة..

لذا أسقطت أولى أوراق اللّعب وغادرتُ اليمن، غادرتُ المجتمع الذي لطالما راقبني كنكِرة لا يجوز لها الظهور ونُدوب أنوثتها بارزةٌ عليها..

لم أنوِ الهرب قط ولطالما كنت ممن يرون فيه حلاً مُبتذلاً، ثم إني كنت قد تحدثتُ مع والدي كثيراً بأمر مغادرتي إلا أن إجابته في كل مرة كانت "لا"، حتى وإن لم يلفظها فقد كانت يده كفيلة بوشْم إجابته على خدي أثناء ترديدهِ لجملته المعتادة عن أنني سأجلب له العار يوماً، صدى الصّفعة بقي لأعوام عديدة يتردّد بداخل رأسي كتعوذيةِ شرٍ تُفاقِم رغبتي بالانتقام من ذاك المجتمع بأكمله لا من والدي فقط..

ولكن ما يتردّد صداه بالقلب الآن أشد وطأة لأفكر بانتقامٍ عتيق، فأسامة وجهة انتقامي الجديدة والهدف المرجوّ وصولي إليه".

***

الفصل الأول

الماضي - اليمن

كنتُ في الماضي أشبه بدميةٍ مُهملة، يُجيد الجميع العبث بي وقتما أرادوا، وعلى حينِ غرّة يمكن التّخلي عني بسهولة. عشتُ وسط مجتمعٍ ذكوريّ بحْت يمارس الاضطهاد على المرأة بشدّة مُستغلاً الدين في اضطهاده هذا..

ناقصةُ عقلٍ فلا يمكن لها التّعلم أو العمل !

ناقصةُ دينٍ فأي ثِقة يمكن للأهالي منح ناقصة دين مثلها!

والكثير غير هذا، بينما تختفي هَمجيّة أفكارهم تلك ويسقطون جزئية من الدين إن تطلّب الأمر حينما تصبح الأحكام مُتعلّقة بهم كذكور...

- ما الذي سيقوله الناس عني وابنتي ترفض الزواج حتى هذا العمر، هل يوجد أحد في حياتك؟ اعترفي بسرعة!!!

قال لي هذا والدي عندما كنتُ في الثّامنة عشرة من عمري، كنتُ أبتسم بحزن لصمت والدتي من على الزاوية أثناء تعرّضي للضرب يومها، وبداخلي أتساءل عن نوع الظّلم الذي قد تعرّضَت له ليمنحها صمتاً عميقاً هكذا !

حتى أنه لم يكتفِ بتعنيفي بل دفع بي لزنزانة غرفتي مانعاً عني حرّيتي لأشهرٍ عديدة، كما أتَمّ أمر خِطبتي من ابن عمي دون موافقتي، كنتُ أبكي طوال الوقت ذنبي الذي ما ارتكبتهُ، وكرِهتُ والدي وقتها للمرة الألف بعد المليون منذ خُلقتُ من صُلبه، الحقّ أنني لم أكرهه بل بقي العقل يخوض في ذلك وحسب

بينما ينبض قلبي مذكراً إياي بأن عليّ أن أحبّه كيفما كان...

غرفتي التي مُنحتُ العيش فيها كانت على الأقل تمنع عني وحشيةً تتسبّب لي بها حريتي المُفتعَلة...

لوهلة وجدتني راغبة بتجنّب الألم حتى وإن كان الثمن المدفوع هو استسلامي والزواج من ابن عمي كرهاً كما أرادوا، ولكن عندما وصل إليّ خبر حصولي على مِنحة دراسية إلى أمريكا -كوني أحد أوائل الجمهورية اليمنية في الثانوية العامة- بدأ شغفي يعود لي تدريجياً لمواصلة حروبي حتى أصل...

وقتها لم يكن يعلم أحد بموضوع دراستي عدا أمي وأختي الصغرى صباح، أما والدي و (قاسم) توأمي فلم يكن لهما علم بأني قد سجّلت تحت نظام المنازل مُخبّئة الكتب تحت سجّاد الغرفة والتي أسهر الليل بعد أن ينام الجميع لأدرسها على ضوء شمعة، كما كنتُ أغادر المنزل هرباً للقيام باختباراتي مُتسبّبة لوالدتي بقلق كبير إن اكتشف أحدهم أمر غيابي.

لطالما كنتُ إحدى مؤيّدات ما قاله غوته بأن الذي لا يتعلّم دروس السّنوات الثلاثة آلاف الأخيرة يبقى في العتَمة، ولكم خشيت بقائي في العتَمة تلك، لذا قاومت الجهل المفروض عليّ وسعيت للتعلم رغماً عن كل المُعوّقات التي واجهتني وأنا أتشبّث بأمل تهبُني إياه مُعلّمتي (علياء) التي قامت بتشجيعي على إكمال دراستي منذ البداية وعملتْ جاهدة لإيصالي نحو هدفي، حتى أنها لطالما جاءت إلى المنزل أثناء خروج والدي لتشرَح بعض ما صعُب عليّ فهمه كما أنها من شجّعتني الالتحاق بالمنحة بعد ذلك، وعلى الرغم من أن المنحة لم تكن تشمل سِعر التّذاكر أو التأمين الصحّي، إلا أنها بعد أن علمتْ بأمر قراري بالذهاب جمعت مبلغاً من فاعليّ الخير الذين كانوا قد ساهموا ببناء المدرسة في

القرية واشترت لي التذكرة بنفسها بعد أن قامت بتركيزٍ كاملٍ في تعليمي اللغة الإنجليزية والتي بالأساس كنتُ أحبها وأُتقِنها نوعاً ما، كما أني سأكون مجبرة على دراستها لمدة ستة أشهر حال وصولي إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

بالطبع صارحت أمي بخبر المِنحة التي حصلت عليها ولكنها أغلقت فمي بيدها المرتجفة وهي تقول بصوت مهتزّ إثر خوفها المُتفاقِم:

- يكفيني خوفاً أرجوك.. لا نريد مشاكلاً مع والدك وأخيك!

كان الجميع يحثّني على التّنازل والقبول بالهزيمة ضد رجال يسلبون مني حقوقاً خلقتُ وهي موسومة على كفّ حياتي حتى بات استسلامي يزيد ممتزجاً بإحباطي، ولكني كنتُ أدرك في قرارة نفسي أني إن لم أكن الثّورة فلا فُرصة لي في الحرية...

فكّرت بأن عليّ التّضحية كذلك لأجل أختي من بعدي ولأجل الكثير من الفتيات أمثالنا، ظننت بأن فعل الهربِ سيكون صائباً، ما فكّرت قط بأنني أثناء تضحيتي تلك قد أُصبح الضحيّة مجدداً، أنا التي بقيت لسنوات عدّة ضحيّة مجتمع وعائلة كان من المفترض أن يمنحوني الاحتواء، لاكَتني فكرة الهرب كثيراً ولكني في الوقت نفسه خشيت فعل أمرٍ يغضبُ والدي لذا قرّرت مُصارحته بأمر دراستي والمنحة على حد سواء.

استجمعت قواي ووقفتُ أمامه بثبات رغم ارتجاف دواخلي قائلة:

- تجاوزت المرحلة الثانوية وحصلت على مِنحة دراسية إلى أمريكا...

دعوتُ الله كثيراً أن يُحنّن قلبه عليّ لمرة واحدة، ولكني شعرتُ بدعوتي تصبح عكسية إذ فقد الحنيّة كلها فجأة، وجسدي المُرتجف خوفاً لحظتها أصبح بعد ذلك مرتجفاً بآثار ضربٍ عنيف..

ولكن صوتا بداخلي ظلّ يمنعني من الاستسلام ..وما تعرّضت له جعلني أكثر تصميما على الذهاب.. المحاولة الواحدة أصبحت ألفاً،

والآثار المائة على جسدي تضاعفَت، والوجع المُتراكم دفعني بعدها للتمردِ والهرَب..

شعرتُ بحاجة ماسّة لإسقاط خوفي وقرّرت توديع اليمن أو إن صحّ القول، قرّرتُ مُغادرة "مَقبرتي".

***

"كيف استطعتَ إطفائي!"

كانت هذه آخر جملة كتبتها في رسالة وداعي لوالدي، الأمر قاسٍ جداً، أن تقرّر الهرَب ممن كان سبباً في وجودك، تمزّق قلبي حينما قبّلت رأس والدتي لآخر مرة وهي تتساءل مازحة:

- ما الأمر، تبدين كأنكِ ستموتين؟

احتضنتُها لأعبئ رئتيّ من رائحتها وأنا أقول:

- أتَبكينَ فراقي إن رحلْت؟!

بقيَت تَخال الأمر مَزحة فأجابت ضاحكة:

- أرتاح من مشاكل تمرّدك المُستمرّ!

ابتسمت بحزنٍ وأنا أراقبُ ملامحها:

- متى كانت آخر مرّة أخبرتك فيها بأنّ لك مَلامحاً تأسرني!

مسحَت على وجهي بحنيّة مُفرطة ثم قرّبتني منها وقبّلتني قبلتين على عيني، وقتها دخل والدي وراقبني بغضبٍ أرعبني، نهضتُ واقتربتُ منه، وقفتُ على أطراف أصابعي قاصدة تقبيل رأسه إلا أنه أزاحني عنه دون أن يَنبِسَ ببِنتِ

شَفَة واضطررت بعدها للخروج بروح متجرّحة...

غادرت عالماً يطالب بضعفي الذي ما كان أمراً خلقتُ به قط، وملامح والدتي التي لطالما أسَرتني أطلقَت سراحي هذه المرّة مُرغمة.

كان الوقت مبكراً حينما غادرت، انتظرت حتى قبيل الفجر بساعة، نهضت عن فراشي وأنا أدعو الله أن لا يُحدثَ ما قرّرت فعله ثُقباً في قلبي، أخرجتُ ثياباً كنت قد جهّزتها تحت فراشي المُستلقي على الأرض، نفس العباءة التي ضُربت بسبب ارتدائها سابقاً -لأن لها لون لافِت حسب قولهم- والتي كان قد تسبّب والدي بشقّ في جانبها الخلفي إلا أنني غطّيت جريمته مُسرعة بسُترة صوفية تخصّ والدتي، لستُ أدري لمَ اخترتها هي بالتّحديد على الرّغم من أنها تُخالف مقاسي ولكن لربما رائحة والدتي العالقة بها كانت أمراً سأحتاجه طيلة رحلتي، وضعت الحجاب على رأسي ولبست حقيبة جلدية قديمة كنتُ قد وضعت بها بعض الثياب والكعك والماء إلى جانب جوازي المسروق من حقيبة أمي الحديدية، اقتربتُ من 'صباح' أختي المعروفة بثقل نومها، قبّلتُ رأسها، ثم خرجت من الغرفة، وضعْت رسالة على باب غرفة والدي وغادرت البيت مُسرعة...

القرية مُظلمة، ولولا المِصباح اليدويّ الذي أخذته معي لكنتُ بلا شكّ قد ارتَطمت بآلاف الأحجار في طريقي، بقيت أركض باكية ومُتمنيّة أن أصل إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، لهثتُ بالدّعاء كثيراً ليظهر أسامة في طريقي مسايراً إيايّ نحو الوجهة ومُبدّلاً معناها كلياً..

الدّفءُ الذي حرمني والدي من وجوده كنتُ على صدَد حرق أي شيء لأشعر به مجدداً..

أي شيء!

ولكنني ما فكرت قطّ بأنني قد أحرق قلبي وروحي لنفسِ الغرضِ إلا بعد أن قابلته.

حينما وصلتُ للقرية التي تفصلها قريتين عن مكان نشأتي كادت أنفاسي أن تنقطع، استندت على جذع شجرة وأخرجت الماء من حقيبتي أرتشف منه القليل وأنا أحاول تغطية يدي بأكمام السّترة الطويلة، كان الضوء قد بدأ بهزيمة الظلام، شعرت بالشّمس لأول مرة وهي تُشرق مداعبةً حريتي.

مشى أسامة بضع خطوات باتجاهي لحظتها وتوقّف لدى السيارة المركونة بجانبي، لا أزال أتذكر بأنه كان يرتدي بِنطالاً أسودَ وقميصاً أبيض وعليه سُترة جلدية تبدو باهظة الثمن، سيارته كذلك بدت لي حديثة وجميلة..

فتح الباب الخلفي وجلس هناك -كالذين كنتُ أشاهدهم على شاشة التلفاز حينما يكون لديهم سائق خاص- وبعدها أخرج هاتفه وبدأ باستخدامه، كنتُ بحاجة إلى سيّارة تُقلني إلى العاصمة فالرّحلة ستكون في تمام التّاسعة، لذا نهضت عن مكاني أنفضُ التّراب وقد أوقفت أحد المارّة متسائلة عمّا إذا كانت توجد سيارة بإمكانها إيصالي إلى المدينة.

لم نكن نبعد عنه سوى خطوتين تقريباً لذا تمكّن من سماعي فأخرج رأسه من على النافذة قائلاً:

- أنا مغادر نحوها، يمكنك مرافقتنا.. ولكن مهلاً، كم تدفعين؟

التفت باتجاهه وأنا أقتلعُ عِقدَ ذهب عن عنقي وأقدمه له:

- هل سيكفي هذا!

مدّ يده ليأخذه فتراجعتُ قليلاً وأنا أقول:

- مهلاً وما الذي يؤكّد لي بأنك لن تقوم بسرقتي!

ضحك وهو يشير لنفسه:

- وهل أبدو لكِ كلصّ؟

- بعيداً عما تبدو عليه، لا تزال غريباً لا يمكنني أن أثِقَ بك؟

- وستركبين مع غريب لا تثقين به!

تأفّفتُ بسخط:

- ماذا قلت الآن، هل ستوصلني أم لا؟ !

لينزل عن مكانه في الخانة الوسطى ويصعد إلى جانب السّائق:

- حسناً، اصعدي.

طوال الطريق لم أنبِس ببنت شَفة، فقط بقيت أنتظر وصولنا نحو الوجهة التي أجهل طريقها أساساً، وبقيت أدعو الله لاهثة أن لا يكونا مَختطِفَين سيهدمان سقف أحلامي بأكمله، تبادلا بعض المواضيع بينما تبادلت أنا الأفكار مع رأسي، بقيتُ أتخيّل ردّة فعل والدي حين يعلم أن ابنته التي ينتظر زفافها بعد بضعة أيام قد غادرت تاركة إيّاه وسط رفضه الذي تمسّك به كوِرثٍ لا يمكن التّخلي عنه، قُطعت أفكاري بصوت أسامة متسائلاً عما إذا كنتُ أود شرب شيءٍ ما، لا أخفيكم خوفي منه لحظتها وأفكار الاختطاف تلك لا تزال قائمة تجوب فراغات رأسي لذا كانت إيماءة رأسي هي ما أجابته نفياً..

بقيتُ أغالب النّوم طوال الطريق وعلى ملامحي أرقٌ واضح، أتذكر بأنه حثّني على النوم كذلك، ولكني رفضتُه متحجّجة بأني لا أشعر بالنعاس، وحينما وصلنا إلى العاصمة وبدأت تلوّح لي أعمدة الإنارات التي تملأ الطرقات، ركن السائق السيارة جانباً وهو يقول أثناء تَحديقِه بي من على المِرآة:

- "وَصلْنا العاصِمة".

فتحتُ باب السيّارة من فوري ونزلت دون منحهم أي ردّ، مددت بالعقد نحو أسامة وأنا أقول:

- شكراً.

أخذ السلسلة ضاحكاً:

- لأوصلك إلى وجهتك في العاصمة على الأقل.

لم تعجبني ملامح وجهه السّاخرة لذا أجبت بحزم:

- سأتدبرُ أمري.

ترجّل عن السيّارة ولحق بي وهو يُعيد العقد:

- كنتُ أمزح، يمكنك أخذ عقدك.

راقبته لبضع ثوان وبعدها خطوت رافضة أخذه.

بعد نصف ساعة أو أكثر كنتُ قد وصلت إلى المطار مُستقلّة إحدى سيارات الأجرة، أجرّ أذيال نصري الحزين خلفي ومُصمّمة على أنه وإن بلغ بي الحزن مبلغه فلست لألتفت أو أتراجع، وإن كان هروبي خطأ فمنع الحريّة عني لطالما كان خطأ أكبر.

بقيتُ أسأل بقلق كلما عبرت شبراً واحداً، حتى وجّهني أحدهم إلى مجموعة الطلاب المختارين للمنَح فبقيتُ برفقتهم حتى صعدنا إلى الطائرة، وبعدها افترقنا كلٌ حسب رقم مقعده .بصعوبة وجدت مكاني، فتلك كانت الرحلة الأولى بالنسبة لي، بل المرة الأولى التي غادرتُ بها حدود القرية، جلست على الكرسي بشعور تعبٍ عظيم لأسمع صوت أسامة من على الكرسي إلى جانبي مُتذمّراً وهو يراقبني ويقول:

- يا إلهي، ليس مجدداً!

الماضي - نيويورك

بدوت غريبة بملابسي القديمة وسط حشود المواطنين الأصليّين في نيويورك حينما وصلت، سائرة برفقة بعض اليمنيين المختارين لأجل المنح ولستُ أدري إلى أي مكان يقتادوننا، وبعد وقت وصلنا إلى مبنى مهترئ بعض الشيء أشبه بفندق فيه العديد من الغرف، أعطي كلٌ منا رقماً للغرفة التي تم استئجارها لأجله لتكن نصيبي في الدور السابع برفقة فتاة لبنانية تدعى ريهام تدرس في سنتها الثانية بكلية طب الأسنان، لها عينان ناعستان كعينيّ وشعر أسود لا يكاد يصل إلى كتفيها، لم أستسغ تواجدي مع غريبة في بادئ الأمر، ولكني اضطررت للابتسام في وجهها بعد أول خطوة لي بداخل الغرفة وأنا أفضّل ألا أجعل حروفي مُنسابة ناحيتها كوني فتاة تعاني من عُقَد في الثّقة، نهضت من على سريرها فور رؤيتي وهي تقول بالإنجليزية:

- Hi I'm Reham.

تبسّمت مجدداً دون أن أنطق لتردف قائلة باللّكنة اللبنانية:

- آه فهِمت، رفِيقْتي السّنة الأولى كانت ما عمْ تِسمع وأنتِ ما عم تِحكي، مَشفَى، مَنّا غرفة عاديّة !

ضحكت من حديثها وأنا أقول:

- مرحباً، أنا وعد.. وعد الرابع.

شهقت وهي تُمسك بفمها ثم قالت:

- أنتِ!

استغربتُ قليلاً وبعدها سألت:

- أنا ماذا؟

التقطت جهازها المحمول واقتربَت مني وهي تقول:

- يمنيّة أنتِ!

هززت رأسي إيجاباً، فتحَت لي مقطع فيديو فسمعتُ صوتاً مألوفاً لدي، إنه صوت والدي، ارتجَفت وبالكاد استطعت منح الشاشة نظرة من عينيّ لأتأكد من أنه هو، تنفّست بصعوبة وبداخلي أقول:

- لا يمكن أن يحدث ما أتوقعه..

ليقطع قولي صوتُه بجملة:

- أتبرّأ من ابنتي الكبرى 'وعد الرابع'..

توقّف كل شيء حولي لحظتها وما عدت قادرة على سماع بقيّة الحديث، أيتبرّأ مني لأني ألحق بحلمي!

يا الله، لماذا تخلقُ الأحلام إن كنت تخلق من يُحاول قمْعها!

ثم لماذا ينشر أمراً كهذا على نطاق واسع، كان بإمكانه أن يتبرّأ مني على نطاق القرية ولكن لا بدّ وأنه يتعمّد نشره لمعاقبتي، ليصل المقطع إليّ فأشعر بخِزي تنازله عني.. كم أن هذا الأمر مُثير للغثيان!

فمُ ريهام يتحرّك أمامي كذلك ولكني لا أستطيع سماع أي شيء بعد تلك الجملة، شعرتُ بالاختناق ونهضت من على السرير مغادرة الغرفة، عليّ أن ألتقط بعض الأكسجين لأُعبئ به فراغ رئتي، نزلت مسرعة من على السلالم متناسية وجود المصعد الذي كنا قد صعدنا به للتو، الدرجة تلو الأخرى، أفقد نفسي رويداً رويداً، كنت أعتقد بأنه سيشعر بالندم أن منع عني موافقته واضطررت لفعل الأمر دونه، ولكن المفاجأة أنه شعر بالندم أن كان سبباً بإنجابي لينتزعني عن شجرة عائلته انتزاعاً أهلَك روحي، حاولت البكاء لكني ولفرْط صدمتي بقيت

عاجزة عن فعل هذا، لذا مشيتُ وحسب، خطوت في شوارع لا أعرف أين تنتهي، كنتُ كمن تحاول أن تلقي كل شعورها في شوارع لا تعرفها ثم تعود خاوية، ولكنني ألقيتُ بنفسي أنا وضِعت، ضعتُ في أول يوم لي هناك، جلست على الرصيف وتبسّمت بحزن ليجلس أسامة إلى جانبي قائلاً:

- متى تنوين العودة!

التفت بفزَع واضح، ففتاة مثلي لم تكن تعرف الشّوارع في موطنها حتى لا شكّ ستفزع من تواجدها فجأة إلى جانب رجل لا تدرك من يكون وعلى شارع لا تعرف اسمه حتى..

نهضتُ عن مكاني وأنا مُتلحّفة الصّمت، ثم إنه لأمر مُفزع أن أقوم بتصريح جديد عني فيصعقني أحدهم بخبر مُفجع كما فعلت ريهام قبلاً، لحقني متعجلاً وهو يقول:

- بالمناسبة أدعى أسامة.

نبض قلبي بخوفٍ واضح وأنا أمضي دون أن أنبِس ببنت شفة تاركة إياه خلفي، لم أدرك أنني وإن أدرت له ظهري وقتها فلي التفاتة طويلة الأمد باتجاهه بعد ذلك، التفاتة كاملة ستجرحني نهايتها..

ولكنني عند محاولته الثانية لإيقافي التفت بغضب وأنا اسأله عما يريده، ليقول بأنه كان قد لحق بي لأنه شعر بأني لست على ما يرام حال خروجي من المبنى، لست أدري لمَ ابتسمت لحظتها ولكنّني قد رسمتها على محياي قبل أن أغادر رقعته مجدداً، واصلت خطواتي المتراجعة عن المكان الذي كنت قد وصلت إليه ولكني لم أصل إلى المبنى، قاربت الشمس على الغروب وأنا لا أدري أين سأذهب، كما أنني كنت أشعر بالخجَل بين شعب لا أعرفه سوى من

على الشاشة، غرقتُ بمصيبة ضياعي تلك وتناسيت حديث والدي قليلاً وحينما التفت وجدته لا يزال يلحق بي فالتفت بغضب:

- حتى متى سيستمر لَحَاقك بي؟

- حتى أرشدك إلى طريق العودة، لا تزالين جديدة هنا.

كنتُ أرغب بحياكة جدال طويل ولكن طاقتي التي أنهكها الضياع ومن قبله السفر جعلاني أقبل إرشاده إياي، رزقته ثقتي متعجّلة ورحت أخطو خلفه بصمت حزين، أتذكّر كذلك بأنه قد سألني عما بي واكتفيتُ بهز رأسي المُتعبة مَلامِحه رافضة الحديث، كان يراقبني بقليل من الحزن كما لو أنّني مشهد مقتطع من فلم تراجيدي، وحينما وصلنا إلى السكن وصعدنا بذات المصعد وجدته يدخل إلى الغرفة المقابلة للغرفة التي كانت من نصيبي، لم أشكره، لم أقل أي شي، فقط أغلقت الباب بينما كان لا يزالُ مُعلقاً عينيه عليّ وهو يبتسم بهدوء، أغلقته وكأنّما أمنع عني العالم بأكمله وأُحيطني بقَوقعة لا يَطولني بعدها أيّ أذى، تلحّفت القهر ليلتها للمرّة الألف ونُمت بألم امرأة مصلوبة كما وصفَت أمرنا 'سيلفيا بلاث'.

الفصل الثاني

"ألف حزنٍ قد تجمّع بداخلي على هيئة رجلٍ بائس يُطلق تنهيداته تِباعاً مُتسبباً لي بكل هذه الحرارة داخل جسدي".

حرارتي مُرتفعة، تلهَثُ أنفاسي لشدّة تعبي ولكن أسامة هنا، وأقصد بهنا "رأسي"، وكلما زادت الحرارة حاولت ترويضها بفكرة تحويه حتى وأنا بعافية عرجاء هكذا..

ولطالما وصفت المرض بأنه قهرٌ عصيٌ على المرء احتماله، ولكن القهرَ الذي تملّكني وقتها هو أنني مريضةٌ به، أمّا اكتئابي فقد كنتُ أقِف أمامه بثبات جبل يستحيل زحزحته. حينما حاولت الانتحار ظنّ الجميع بأنه اكتئابي وبأن جرحَ يدي المفتعلُ سيقتلني إن تأخّر الإسعاف بالمجيء بينما كنتُ أنزفُ من جرح قلبي دماءً أكثر دون أن يعترفَ أحدهم بموتي المُخبّأ تحت جلدي..

حتى هو بدَا مُنكراً ما أصابني به..

بقيتْ الأضواءُ تُصيب عيني وأنا بين يديّ ريهام لا أكادُ أُميّز شيئاً عداه الواقف عند عتبة باب الغرفة بعد أن جذبه صوتها وهي تطلب النجدة..

كان يُراقبنا دون أنْ يحرّكَ ساكناً..

ولا زلتُ أستغرب أمر تمييزي وجوده أثناء احتضاري كذلك..

أسقطتُ نظرتي الأخيرة بداخل عينيه الخائفتين

وبعدها سقط عني وعيي...

بدأتُ لحظتها أفقد الحياة رويداً رويداً وشعرتُ بندمٍ متأخر على ما أقدمتُ

عليه..

خِفتُ عقاب الآخرة على الرغم من أنني لم أكن أعتنق الإسلام وقتها إلا أنني خِفتُ كثيراً..

بدأت أسمع صوتاً بداخلي يردّد:

" أنت لا تحبُ ما أقدمتُ على فعله فنجّني هذه المرّة، أرجوك دعني أدرك وجودك ونجّني هذه المرّة يا الله."!

استيقظت في اليوم التالي بخواءِ جسد لم يسبِق لي أن شعرت به، راقبتُ غرفة المستشفى للَحظات قبل أن ألمح إلى جانب سريري طبيبي النّفسي لبناني الجنسية "جميل"، راقبني بابتسامته الهادئة ثم قال :

- تبدين بحال جيدة.

أشَحتُ بوجهي عنه وأنا أقول:

- إن كنتَ تظن بأنّ قولك هذا سيُعزّيني في مصابي فأنت مُخطئ؛ فمُصابي كبير وعزائي الوحيد هو أن أفقد ذاكرتي اللّعينة هذه.

- لماذا ترفضين ما أعطتك الحياة إيّاه يا وعد؟

- وأي عطاء هو هذا، أذاكرة ممتلئة بألمٍ عصيٍّ على النسيان؟

- أهو الأمر الوحيد الذي تمتلكينه!

- كل ما أمتلكة يستمر لبرهة من الزمن ثم يختار رفضي في النهاية، عائلتي، وموطني وأسامة.

- جميع من في الأرض يرفضك ولكن ماذا عمن أوجدك، لستِ موجودة هنا عبثاً، قد أوجدك الله لأنه يريدك هنا، على هذه البُقعة تحديداً، وسط هذا الفقد الذي يؤلمك ولأسباب لستِ تدركينها.

دفعت حديثه بعيداً عني:

- لا تحدثني عن الآلهة، هو أمر ما عاد يستوعبه عقلي.

ابتسم بهدوء ولم يعلّق فأردَفت أقول:

- ألن تدافع عمّن تؤمن به!

أشار لرأسه ثم قال:

- سلّمت عقلك هذه المَهمّة، فانظري فيما هو قائله.

ابتسمت بسخرية وأنا أرد:

- يقول لي أن من أوجدني عليه أن يتكفّل بحمايتي لا أن يعرّضني لكل هذا الكمّ من الأذيّة!

واصل تبسّمه وغادر الغرفة بهدوء ولطالما كانت هذه عادته أن يتركني عرضة لسوء أفكاري -عوضاً عن محاولة حلّها معي- ويقابلني بابتسامة وحسب، غادر الغرفة وبدأت شدّة أعاصير أفكاري حيال الدين بالتّفاقم، كِدت أجنّ حقاً ولستُ أرسو لدى أمر معين، فمن بدوتُ مسلِّمة لأمر وجوده حينما شارفت على الموت ولهثت بالشكوى إليه راجية أن ينجّيني أعود لعصيانه فور نجاتي، أي غدارة هي أنا!..

لوهلة شعرت بي أُشبه أسامة، غدارة باختلاف النّقطة المُقامة عليها أركان غدري وحسب.

بعد أيام كنت قد عدتُ إلى السّكن مجدداً، حينما وصلتني رسالة منه، فتحتها وأنا قابعة على الشُّرفة فكان محتواها:

- كيف حالك؟

سأل عن حالي الذي قد جعله هشيماً تذروه الرّياح، لأجيبه بحزن حادة

أطرافه تكاد تجرحني:

- كيف سيكون حالي بعد محاولة انتحار فاشلة!

كيف سيكون شعوري وإذ بالموت يخذلني كما فعلت أنت.. كيف هو شعور ريهام حينما بكيتك وسط ضحكاتي معها ثم طالبتها بقليل من الهدوء لتكتشف بأن الهدوء الذي طالبتها به ما هو إلا رغبة بالموت!

هلّا أوقفت خطواتك بداخل رأسي وقلبي أرجوك..

تعبت من سماع صوتك، من الشّعور بك، تعبت من هذه الغُصّة المُتّخذة من حلقي مَسكناً لها، تعبت من الموت بهذا الشكل، تعبت من الكلام، من التحرّك، من الاستيقاظ ومن فكرة العيش حتى..

تعبت من انتظار عودتك مُعتذراً، من أن تقف أمامي مُفسراً أسباب فعلك، أن تعتذر أو أن تخبرني بأنك قد أحببتني يوماً وأنني ما كنت غبيّة لأني صدقتك، أن تعود وتحضر برفقتك أمراً يشكل عزاءً لكل ما فعلته ولكنك لم تعد..

أتعلم!

خائفة من فكرة ألّا أتجاوزك

وخائفة من فكرة تجاوزك كذلك..

خائفة أن تكون هذه الفترة عمراً كاملاً لا وقتاً مُقتطعاً من شريط عمري..

أخاف أن يستمر شعوري هذا للأبد

أخافك جداً وأخاف مني..

خائفة أنا مني كما أخبرت ريهام قبل محاولة إنهاء حياتي..

فلتدعو لي على الأقل، فلتدعو لأجل انتزاعك من دواخلي، فهذا أقل ما

يُمكنك فعله لأجلي ولأجل الخراب المَكسُوّة به بسببك.

ختمتُ الرّسالة ببكاء خانق، تمنيت مجدداً لو أنني مت ولم أعِش ذاك الشعور قط، فسؤاله الذي كنت أجيب عنه بـ "بخير لأنك في حياتي"، قد بت أكتب مقالة حزن كإجابة له، شعرت بالأمر يُصبح مُلغّماً حد انفجاره في أية لحظة وأني وحدي من سأكون ضحيّته!

***

لطالما رفضتُ فِكرة إبقاء أسامة بداخل أفكاري، وبمقدار ما أحببته وددتُ لو أني أتخلّص منه كلياً..

رغبت بتطبيق ما قالته أحلام مستغانمي يوماً:

[أحبّيه كما لم تحبّ امرأة وانسَيه كما ينسى الرجال]..

ولكن..

هل يسعى المرء في الحبّ ليدحضه عن الذّاكرة بعد وقت وكأنما هو أمر مغلوط ما كان عليه الخوض فيه منذ البداية!

وقعت في حبه امرأة..

وتجهلُ الطّرق المؤدية لنسيانه امرأة

أما قالوا بأننا سُمّينا نساءً لكثرة ما ننسى!

فأين النسيان عني وأين أنا عنه!

وهو الرجل الذي ما ارتبط به النّسيان أنّى له أن وقع في أمرٍ كهذا!..

يؤلمني أن أكتب عنه وأنا هنا أُقلّب عيني الممتلئة بالدّموع وأشكوه للورق..

عيناه نفسها

ضحكته نفسها

يسيرُ على نفس نهج التّصرفات

كل الأمورُ المتعلّقة به لا تزال نفسها إلا ذاكرته! أكاد ألمح ثُقبها من مكاني هذا، وأنا أتسرّب من داخلها كسلبيةٍ مُطلقة عملَ جاهداً على طردها..

تجلس (عهد) زميلتنا الجديدة في الغرفة -فكلّ غرفة تتّسع لثلاثة أشخاص- على يميني وهي تدرك بأني أكتب عنه، تُمسك بكتفي وهي تراقبني بلطف كبير، بينما تتعالى ضحكات ريهام أثناء حديثها على الهاتف وهي تتقدم نحونا..

يومها كنا قد اتّفقنا على البقاء معاً بعد انتهاء المحاضرات، وذهبنا إلى أحد المقاهي القريبة من الجامعة لتبدأ ريهام الحديث معي:

- كيف هو جرح يدكِ؟

راقبت الضِّمادة المُحيطة به وابتسمت بسخرية:

- قيد تحسّن!

قالت عهد وهي ترتشف القهوة:

- كما أنها لن تعيدها مُجدّداً فقد أخافَتنا كثيراً!

ثوانٍ معدودة مرّت حينما اقتربت مني طفلة لم تتجاوز الخامسة بعد من عمرها وهي تقول مُبتسمة:

- تبدين جميلة !

راقبتها وأنا أبتسم باستغراب، قبل أن يتقدّم رجل ببشرة بيضاء وعينين بلون القهوة وشعر بذات اللون يزيّن رأسه وهو يعتذر منا..

أمسكَت الطّفلة بيده وهي تقول له:

- أيمكنني البقاء معها قليلاً، إنها تُشبهها، أرجوك!

زاد استغرابي وأنا أُراقب الرّجل الذي التفتَ بدوره قائلاً:

- تُشبهين والدتها.. أقصد زوجتي المتوفية، لذا أيُمكنك البقاء معها للَحظات من فضلك!

هززت رأسي موافقة وأمسكت بيدها:

- ما اسمكِ؟

- أمان.

لا أدرك ما أصابني لحظتها، ولكني بعد أن راقبت الفرح بداخل عينيها أن رأت شبيهة لوالدتها شعرت بشوق لوالدتي التي هجرتُها منذ خمسة أعوام، ولست على علم بأي شيء مُتعلّق بها..

سقطت من عيني دموع حاولت مَحوَها إلا أنها أبَت إلا النّزول، اعتذرتُ من الرّجل وغادرت مُسرعة..

وقفت خارج المقهى أتنفّس بعذاب وأنا أقلّب الماضي بداخل رأسي بحسرة، لحظتها كرهت حريّتي واشتقتُ لقيدي بالفعل..

بعد لحظات سمعتُ الرجل خلفي يتحدّث إلي:

- لستُ أدرك أيّ الأمور قد استرجعَتها ذاكرتك وأنا حقاً أعتذر إن كنتُ وطفلتي سبباً فيها.

مسحت دموعي:

- مجيئكما محض قدر، أنا التي ما كان عليّ اقتراف ذنب لأسترجعه جرّاء هذا.

- واقتراف الذنوب قدرٌ برأيي.

- أوَلسنَا مخيّرين؟

- مخيّرون ضِمن أقدار!

لم أُعقّب فابتسم مقدماً لي كرته الخاص وهو يقول:

- ستُقدمين لي معروفاً إن أنت تمكّنتِ من الجلوس برفقة أمان بين الحين والآخر، فكّري بالأمر وعاودي الاتصال بي.

التقطته من بين أصابعه وأنا أتساءل:

- ألا تخشَ عليها من البقاء مع فتاة لا تعرفها؟

- مُحطّمة أنتِ بما فيه الكفاية، لا تملكين قدرة على إظهار شر تجاه أي أحد.

- وأنى لك معرفة هذا!

- أحفظ هذه الملامح جيداً وأُدرك التغيرات التي تطرأ عليها وقت تتحطّم.

صمت ليودعني ويعود للمقهى ملتقطاً صغيرته من بين عهد وريهام ويغادر من فوره، رفعت الكرت لأقرأ عليه "سالم الرائد..طبيب مختص بالأورام السرطانية"، دخلت المقهى ووضعتُه بداخل حقيبتي واستأذنتهما بالمغادرة بعدها.

***

- هل استمعتِ لقصص معاناة بعض الأشخاص من قبل؟

قالها لي سالم هذا فجأة، وهو يرفع رأسه عن المجلّة القابعة بين يديه بعد أن أخبر المربّية أن ترافق أمان إلى غرفتها، قلت متسائلة بتوجُّس:

- ما الذي تقصده!

- سماعك لمعاناة الغير يعدُ دواء أحياناً.

- تبدو مُصراً عن كوني مُحطّمة وأني أعاني؟

- بل أكره رؤية ملامحك هذه وهي حزينة، وأرجوك ألّا تأخذي الموضوع على محمل رغبتي بالتقرّب منك فقلبي ما خُلق إلا بنبضٍ واحد استهلكتُه لأجلها

قبلاً.

- زوجتك؟

- أجل، أمان.

- مهلاً، هل أسميتَ ابنتك باسمها؟

- أسميت عمري كله باسمها.

ضحكت:

- أعتذر ولكني لستُ معتادة على أن يُحبّ الرجال بمثل طريقتك، لذا أضحك.

راقب الخارج من خلال النافذة لدقائق وكأنما يسترجع شيئاً ثم قال:

- كنتُ لا أزال طفلاً حينما وقعتُ بحبها، أُحدّق بها اللحظة في ذاكرتي وهي بداخل جسدها في عمر التّاسعة وهذا أقصى أمد بعيد أتمكن من ملامسته في تذكّر تفاصيلها.. فتاة مُفعمة بالحياة، ملامحها حادة، عيناها ناعستان، سَمارُها يسلب المرء الرغبة في تمييز أي لون غيره، شعرها الأسود الغجَريّ، الذي كلما أزاحتْه وأودعته خلف أذنها أودعتني برفقته في النعيم، وشخصيتها المعقّدة والمُتفاقمة تعقيداً كلما مر يوم جديد..

أطلق تنهيدة بعد وصفه إياها كما لو أنه يعبّر عن رغبته باحتضان تلك الملامح في واقعه مجدداً..

نهض من على الكرسي وهو يدندن بصوت منخفض وعذب ما توقعتُ خروجه منه:

"باطل..

باطل على العمر الذي من غير محبوبي جِزِع "

شعرت به يُخرج الكلمات دامية بعد أن غمسها بجرحٍ داخله.. ودون أن يلتفت أردف قائلاً:

- يُهلكني غيابها يا وعد، وكل عمري قبلها باطل، كل الأيام التي مررت بها بدونها أجدها هدْراً، كنتُ مختنقاً جداً قبلها ولو أنني أدركت باكراً أن أنفاسي ستقوى بقربها لكنتُ اختطفتها منذ أول يوم حُرمتُ فيه من رؤية ملامحها التي اختبأت تحت النّقاب بعد أن كبرنا، كان علي أن أضمّها لحياتي بوقت أبكَر عِوضاً عن منح خيالها وحسب القدرة على الالتصاق بي الآن، أنا مدركٌ أنّ هذا كان قدرنا وإني والله لراضٍ به ولكن الأمنيات ما تَفْتأ تزور رأسي بالعودة للماضي وخوض كل الثّواني برفقتها وحسب، بعيداً عن العالمين، بعيداً عن الشوارع وبعيداً عن البشر وحتى عن تلك السّجائر المانحة صوتي بحّة في تفاصيله والتي فصلتني عن الحديث معها لدقائق أثناء شربها..

أقسم لك بأنني ما توقّعت بأنني سأكون وحيداً بهذا القدر بعدها، مُتعبٌ جداً أن استحالت لسواد حزن مؤخراً وهي التي كانت خيراً أصاب عالمي..

ما مر الكثير على فراقها ولكنني أقسم لك بأنني مشتاق لها جداً!

- كيف عرفتها؟

- كان حُباً طفولياً ما توقّعت استمراره ولكنه استمر، كنتُ كلما كبرتُ زدت وقوعاً بها، ووجهها الذي أودعته خلف نقابها كان أمراً أُدرك أدقّ تفاصيله، وعينيها السوداوين أكاد أقسم لك بأنني عددت رموشهما كلّما راقبتهما.

- أبادلتك الحب ذاته، أم هي عادة الحب.. طرفٌ مُحب وطرف جارح.

- لا أنكر أنها كانت حادة الطباع، تواجهني بالشّتائم الطفولية كلما تكلّمت

معها، تستهين بي على الرغم من أن كل ما كان يفصلنا بالعمر هي بضعة أيام وحسب، وأنا! كنتُ أصمت.. أقابل سيل غضبها- الذي ما له أسباب سوى قوّة شخصيتها التي توجّهها لمثل هذه التّصرفات المُسيطرة باتجاه الجميع- بالصمت، كلما حاولت إظهار حزني من تصرفاتها كانت تنادي اسمي بصوتها ليتضاءل الحزن ويُغادرني من فوره، كبرنا وقررت الاعتراف، كنا لا نزال في الثانوية العامة وقتها، حدثتها من هاتف أختي الصغرى إلى هاتف أختها التي تكبرها بعامين والتي لطالما وقفت في صف حبي النّقي لها، عارضت هي في بادئ الأمر أن تتحدّث معي ولكنها وبعد وقت قبلت، سألتني عن غرضي مُتعجّلة، قلتُ لها بأنني أُحبّها لتُجيب باقتضاب:

- تَدِلُّ طريق منزلنا جيداً، متأكدة من أنك لن تضيع!

ضحكت لردودها التي ما تغيّرت وقلت:

- أعلم هذا ولستُ هنا سوى لرغبة مني بمعرفة إن كنتِ تبادلينني نفس المشاعر أم أن عليّ شرع عزاءٍ مُبكرٍ لمشاعري؟

رفضت إخباري لحظتها وقامت بتأجيل جوابها لليوم التالي.. بالطبع لم أكن لأمانع أمراً كذلك على الرغم من حاجتي الماسّة لسماع "نعم" تَنعُم بها حياتي..

صمَت بينما لمحتُ دموعاً تملأ عينيه، قلت مُحاولةً تهدئة أفكاره:

- لقد تزوجتها في الآخر وهذا ما يهمّ!

- ضاع الكثير من الوقت يا وعد، الكثير من الوقت الذي لسنا قادرين على استعادته.

- مهلاً، أتعتبرُ يوماً قضَته بالتفكير ضياع وقت!

- الثانية إهدار عظيم بالنسبة لي، ولكنني على الرغم من هذا أعني ما قلته بالمعنى الحرفي، ضاع الكثير من الوقت من بين أيدينا بالفعل.

راقب الساعة على عجل وأردف قائلاً:

- أقدّر لك حضورك، ولكن يجب علي الذهاب إلى المستشفى الآن.

ودعته وذهبت إلى السكن مجدداً، جلست عهد قبالتي وهي تقول بهدوء:

- لِمَ فوّتِّ جلسة علاجك النفسيّ اليوم؟

- ومن أخبرك؟

رفعت ريهام رأسها عن الكتب وبلَكنتِها اللبنانية قالت:

- بحمْد الله أنّو جميل بيكون صديقُو لَبابا.

شردت لوهلة وبعدها قلت:

- قرّرت أن أحاول مساعدة نفسي هذه المرّة.

- جيد هذا الأمر ولكن..

ابتسمتُ وربّت على كتفها مقاطعة إياها:

- سأنجح في هذا، لا تقلقي!

تجاهلت أحاديثهما بعدها ووضعت رأسي على المخدّة لأغرق بالنوم..

دخلت في عالم مكتمل الهدوء وأنا أدعو الله أن أرى حلماً هذه المرّة عوَضاً عن كوابيسي المتكررة..

وسرعان ما ابتدأ..

أسمع رفرفة جناحَي فراشة

أتلفّت باحثة عنها ولكني أجدها تقترب من النار المشتعلة داخل غرفتي أنا

وأسامة، ليُصبح الحلم الذي طالبت به كابوساً كالعادة..

أسأل اللاشيء عنها (أتراها تنجو!؟)

لتزيد اقتراباً وتجرّ أنفاسي خلفها

وفجأة تحترق..

أراقب جسدي بخوف وهو يستعِر كذلك

هذا يعني أنني كنت أرى نفسي..

تلك الفراشة أنا والغرفة المكتظّة بالأغراض كَومَة أحزاني..

إني أهلَك..

أصرخ بشدة، وعوضاً عن طلب المساعدة أجدني أقول: (لن أنجو)..

أستيقظ من النوم بفزَع، لأجد الغرفة قد أصبحَت فارغة بعد مغادرتهما، فأحاول تهدئة نفسي بنفسي وبعدها أعاود النوم مجدداً.

الفصل الثالث

الماضي - نيويورك

"الماضي صَفعَة على وجه الحاضر".

الانعزال أمر يليقُ بي جداً، صِفة عظيمة أوصلتني إلى ما أنا عليه الآن، فتاة يمكنني سرْد ألف كتاب بشكل متواصل لشدة ما وسعت مداركي، واتّساع وقتي يفي بغرض تعمّقي في كل شيء، كما أنني ساعية نحو تحقيق حلمي بأن أصبح مهندسة وكاتبة في الوقت نفسه..

لطالما أزعجَ والدتي أمر انعزالي هذا، فهي لا تكاد تتذكّر أنني قد رافقتها في خروجاتها في القرية، كما أنني كنتُ أتجنّب الذهاب للأعراس تماماً..

أتذكر بأنها لطالما قالت بأن تربيتي التي كانت قائمة إلى جانب تربية توأمي "قاسم" قد جرّدتني من صفات الإناث ولكن كل ما أؤمن به هو أنني مجردة من عادية الفتيات ولي طابع أنثوي مختلف من خلال تفكيري وتصرّفاتي.

كان أسامة قد لاحظ اختلافي ذاك منذ بداية تعارفنا أيضاً، كما أن أكثر ما أعجبه فيني حسب قوله هو تفكيري الخاص والبارز من خلال نقاشاتنا، أتذكر بأن نقاشنا الأول دار مُطولاً حيال ما يرمز له اللّونان 'الأحمر والأسود 'وكذا الأبيض، حيث كان مصراً على أن الأحمر لون الحب والأسود لون الحزن والأبيض لونٌ يخصُّ كل ما هو مريح..

قلتُ له مخالفة رأيه:

- الحدث هو من يصنع رمزية الألوان لا العكس.

- وكيف يكون هذا!

- لو أنني سألتك الآن عن أيّة فِكرة مُتّصلة بإيمانك بمعاني الرموز تلك فأية أفكار ستكون نصيباً لي؟

- ما من أفكارٍ بعينها، ولكن هذه أمور بديهيّة يمكن لأي شخص إخبارك بها إن أنتِ سألته عن هذه الألوان.

- أَلَونٌ أبيض في صباحٍ تُعايشه لوحدك أو وسط من لا تحبهم سيمنح يومك صفاء اللون المُنتشِر من حولك أم هي مسألة مشاعر!

- ما الذي تحاولين قوله؟

- فقط أجبني.

- حسناً، هي مسألة مشاعر بلا أدنى شك.

- ماذا إن كان ظلام اللّيل يُحيط بك وأنت برفقة شخص تُحبّه، هل يحزنك السوَاد وقتها!

- لا أعتقد!

- ولون الدّم أثناء الحروب، أيُسعدك؟

- بالطبع لا.

- وهذا ما أردت إيصاله إليك، الرّموز المتعلّقة بالألوان التي يضعها الناس كأساسيات ما هي سوى أفكار مُقولَبة ومبنيّة على أسس شخص واحد، التسيير وراء الأفكار المطروحة غباء بحت وبقاء الناس بداخل صندوقٍ -وضعه غيرهم- محشورين أمر لا يمت للفطرة البشرية السّويّة بصِلة، ها أنا ببضعة أسئلة قد جرَرت إجابات منك تفيد بأن الحدث يصنع دلالة الألوان لا العكس. ربما يكون من اتّبعت تفكيره قد فقد أحدهم ليلاً فبات السواد يعني حزنه، وكذا من

الممكن أن يكون شخصاً يُحبه قد ضحى بنفسه لأجله فحينما لمحَ الدماء برز له حب التّضحية في ذاك الشخص فقام بوضع دلالة اللون لحظتها، الأمور تختلف باختلاف الزاوية يا أسامة ولا يمكنك وضع قوانين ثابتة لأي شيء كان في هذا العالم.

كان ردّه بعدها يُوضّح مدى استِيعابه لحديثي وتقبّله له، وأمر مُرونته تلك في اكتساب قناعات جديدة كان هو الأمر الثاني الذي أقع في حبّه بعد حاجبيه الشّامخين..

ربما يبدو الأمر غريباً أن تقع فتاة في حب حاجبين ولكن لخاصته تفاصيل لطالما أحببتها، زواية حادّة قُرب طرفه تجرح كبرياء فتاة ما التفتَت لرجل قطّ وعشوائية شعيراته الكثيفة كانت بمثابة أمور شوّشت كل قناعاتي السّابقة، أما الشّامة إلى جانبه كفُوّهة بركان كانت قد أحرقَت كل كرهٍ حملته بداخلي تجاه الرّجال بمجرّد أن راقبتها، وكلها أمور كانت تفوق مَقدرتي على التّجاهل، هالته في كل مرّة راقبتها كانت تتّضح أكثر وتميل مُتعجّلة نحو هالة قلبي مُندمجة بها ببساطة تامّة.

***

لم أتمكن من رصد جميع خطواتي المتنقّلة بين المطاعم في نيويورك على أمل إيجاد عمل جزئي، ولكي تمكّنت من رصد ثواني فرحي أن أصبحت عاملة إيصال لدى أحد محلات الحلويات في القرب من منطقة سكني، كان الأمر مُتعباً في بادئ الأمر، ظلَلت أسأل عن الشوارع التي يمكنني سَلْكها لأصل إلى وجهتي، ولكنه ما أخذ وقتاً طويلاً حتى تحدث أسامة مع صاحب المحل وقام بإقناعه أن يقوم بربط نظام الخرائط بالعملاء على تطبيق يخصّ المحل ليسهل

الوضع عليّ وبالفعل تمكن من إقناعه بعد أحاديث مطولة، ولأنه من قام بتصميم التطبيق ووضع النظام بأكمله دونما مقابل قام صاحب المحل بمنحي هاتفاً بالتّقسيط لأتمكن من متابعة العمل، كانت فرحتي عارمة يومها ولا زلت أتذكر بأنني قلت له حينما غادرنا المحل عَشيّة وأنا أقلّبه بين يدي:

- لا أصدق بأنني قد حصلت على واحدٍ أخيراً.

ضحك وهو يقول:

- لا أود المجازفة إن أنا سألتك عن عدم امتلاكك لواحد حتى الآن.

صمتُّ قليلاً وكأنما سؤاله قد أعادني كثيراً للماضي ثم قلت:

-باختصار لم يكن يُسمح باقتنائه في عائلتنا.

- ولماذا؟

- مفسدة للشّرف، هكذا كان يقول والدي.

بدوت بعدها كمن تتهرّب لذا لم يقل بعدها أي شيء وانشغل بِثَنْي أكمام قميصه مُتجنباً إحراجي، ابتسمت له وبادلني الابتسامة الباهتة نفسها وواصلنا الطريق بعد ذلك.

الفصل الرابع

نيويورك - الساعة العاشرة صباحاً

نهضتُ من على السرير بعينين متمدّدتين بعد بكاء البارحة، لا تزال الغرفة من حولي متكدّسة بالأغراض التي لم يصدف أن قمتُ بترتيبها منذ عدت إليها، كما أني أرفض مساعدة ريهام وعهد بهذا الأمر..

تساءلت عن مكان هاتفي، لأتذكر بأنني قد رميته ليلة أمس إثر غضبي، التقطته من على الأرضية بعد بحث استمر لثوان.. أتلمّس شاشته المكسورة وأضيئُها، لأُلحق تنهيداتي بجملة "لم يتضرر كثيراً.."

وصلتني ثلاث رسائل لحظتها، صورتين مرفقتين بعنوان لأحد مشافي نيويورك، فتحت الصور مُتعجّلة لأجد أسامة نائما على سرير المشفى، لم أتساءل عمن يكون المرسل فقط جاهدت أنفاسي الخائفة وبعدها أغمضت عيني وأنا أخبر نفسي بأنه إنما يحاول الحصول على صكّ غفرانٍ مني مستخدماً طرقاً بغيضة كهذه..

- أحمق حقاً!

أغلقتُ الهاتف بغضب مصطنع ودواخلي تكاد تذوب لفرط ما أشعلت الصور حرائق خوفٍ عليه بداخلي..

شرعتُ بنزع الضّمادة عن معصمي بغضب، وقتها خرجت عهد من الحمام واقتربت مني:

- ما الأمر!

قدّمت لها هاتفي لتنظر في الرسائل، قالت:

- أتعودين؟

وزّعت أنظاري في الغرفة وبعدها قلت باكية:

- لا يمكن أن أعود بحزنٍ لا يزال يسكنني منذ تسبّب برحيلي عنه، لا يمكنني أن أُلصق صورنا الممزّقة مجدداً وأن أشابك يديّ بيدين مرتخيتين لجسد خاوٍ على السرير يعنيه، لا يمكنني أن أنهش عافيتي مجدداً لأكون برفقته، لا يمكنني حتى وإن أردتُ هذا..

رحلتُ بسببه فلست لأعود بسببه كذلك، أود أن أكون صاحبة القرار يوماً، أود أن أكون السبب ذات مرة، أن أُكوّم احتياجاتي لأرميها في وجه قسوته حتى أُدميها، سئمت من كوني المُسيّرة دائماً في حكايتنا هذه منذ البداية.. لذا لا يمكن أن أعود له، فتعبه هذه المرة أمرٌ لا يوازي تعباً كان قد أهداني إياه سَلَفاً، والأوان الذي فات مُودِعاً فيني مهالكه قبلاً أظن بأنه قد فاته هذه المرة.. قد فاته الأوان يا عهد، وكل محاولات القدر في إعادة صياغتنا كثنائي ستبُوء بالفشل حتماً..

وقتها فتحت ريهام عينيها ببطء وهي تقول:

- قدر شو وفات شو!

رمتها عهد بالوسادة:

- عودي للنوم.

ثم التفتَت ناحيتي مجدداً:

- ألن تقومي بزيارته؟

ابتسمت ابتسامة جانبية:

- سأزوره حتماً ولكن.. لأمنح أوانه تشوّهاً قبل أن يفوت، لأنتقم لنفسي وجبروته قد بات ملغيًا وأنا قد بت مُشبعة برغبة عارمة بالانتقام.. النهاية التي منحني إياها ما كانت سوى وضعه إياي على الحافة.. أما الآن فقد آن أن يسقط هو من عليها.

وقتها شعرت بي أسقط عرضاً من شقّ علاقتنا التي سبق وانتهت، تسحبني جاذبية خياناته ناحيتها دون محاولة منه لتلقّفي قبل الاصطدام والتّناثر، شعرت بحاء الحب تتحول لحاء حسرة وحرائق لا تنطفئ..

فهل يظنني بعد كل هذه الأمور باقية!...

"أسامة.. لا تعتَب فيني التّخلي وأنت بحدّة تصرّفاتك قد دفعت رِقّة مثلي للهرب".

***

غادرت السكن من فوري بعد ارتداء عشوائي لبعض ملابسي، وتوجهت للمستشفى المرفق عنوانه بالصورتين، سألت عنه وأعطوني رقم الغرفة التي يمكث فيها..

حينما وَلَجت إلى الغرفة لأراه كاد قلبي ينفطِر حزناً..

جسده النائم في سبات المرض، الأكسجين الموضوع على وجهه والضمادة المحاوطة رأسه وغرقه باللاشي..

جلست على الكرسي الموجود بجانب السرير وقلت بهمس:

- أسامة، أنا هنا.

أزحت من فوري فكرة انتقامي التي ردّدتها قبلاً، وضعت يدي على يده المتّصلة بالمصل وأنا أرتجف، ودموعي تتساقط بالرغم عني، دخلت لحظتها

الممرّضة وشرَعت أسألها بعجل وقلق:

- من الطبيب المسؤول عن حالته؟

ابتسمت لي بهدوء وهي تقول:

- لا تقلقي حالته مستقرّة، سيأتي الطبيب بعد دقائق.

كانت الدقائق تلك أعوام متراكمة بالنسبة لي، وحاجتي عظيمة بمعرفة ما أصابه، دخل الطبيب لأرفع رأسي بعينيّ الباكيتين وأقول:

- ما خطب...

ولكن الطّبيب كان سالم، صعقت لرؤيته وما أكملت سؤالي، كل ما جاء في بالي أنّ سالم طبيب أورام سرطانية فما الذي يفعله هنا!..

نهضت ناحيته وأنا أقول:

- سالم .. بربك لا تقلها!

راقبني مبتسماً بهدوء:

- كنتُ أعلم بأنك ستأتين.

تلكّأت بالحديث قليلاً وأنا أقول:

- هـ.. هو زوجي.

تبسّم:

- أعلم هذا، أسامة يكون صديقي.

لم أُعر حديثه اهتماماً فقط تساءلت:

- أنت طبيب أورام أليس كذلك؟

هز رأسه بابتسامة باهتة وهو يراقب الأوراق:

- سيكون على ما يرام، لا تقلقي!

وضع الأوراق مُجدداً وتحدّث مع الممرضة قليلاً ثم طلبني في غرفته، تبعته وخطواتي متثاقلة.. جلست على الكرسي في مكتبه دون أن أتمكّن من الحديث.. ليبدأ هو:

- فقد وعيه فجأة أثناء جلستنا ليلة أمس وصدم رأسه بقوة على عتبة الباب، وبعدها جئنا إلى هنا.

توقّف عن الحديث فقلت بخوف:

- وبعد؟

طأطأ برأسه:

- سرطان رئوي.

أمسكتُ فمي محاولة تخفيف وطأة شَهقتي ليردف قائلاً:

- لا تقلقي لا يزال في مراحله الأولى سنتمكن من القضاء عليه بإذن الله وكل ما يحتاجه الآن هي الطمأنينة ولهذا جعلت الممرّضة ترسل لك لتأتي.

نهضت عن الكرسي وقلتُ دونما مواجهة:

- طالما كنت تعرف بأنني زوجته، كما كنت متأكداً من كوني امرأة محطّمة، فلا بد أنك تدرك كذلك أنني وهو قد انتهينا، فلماذا تطلب مني الوقوف إلى جانبه الآن.. أتُداس الوردة ثم يُطلب رحيقها يا سالم؟

- اقعدي من فضلك، أنا أدرك بأن ما مررتِ به قاسٍ جداً، وصدّقيني لقد كنتُ في صفك دائماً، ولكنني واثقٌ بأنه وعلى الرغم من كل ما أحدثه فلك من الحنيّة ما يكفي لتغطية جميع أخطائه.

مال فمي:

- مخطئ.. جئت لأنتقم، أردتُ استغلال ضعفه وحسب !

ابتسم مُسلّطاً أنظاره على عيني:

- قسوتك هذه لا تنطلي علي.. أعلم بأنك لا زلت تحبينه.. هذا واضحٌ في عينيك.

ارتبكَت تحرّكاتي ثم قلت:

- وإن كانت قسوتي كاذبة، وإن قرّرتُ البقاء برفقته، فهذا لأنني لطالما تعاملت بإنسانية حتى مع عدوي ولستُ لأتملّص منها الآن.. أما الحبّ فقد مات بالنسبة إليّ، حسناً.. سأعود لغرفته.

خرجتُ وأنفاسي تكاد تنقطع، خِفت عليه مما أصابه ونسيت جزئية كبيرة من خوفي منه، فكرتُ في البقاء برفقته إلى حين يتعافى، ولكني بقيت قيد خوف من أنه سيلفظني فور استيقاظه..

فلطالما رفضني..

حتى حبنا كان قد رفضه قبلاً

اعتبره كارثة ومحاولة اغتيال مني له لذا هروَل مبتعداً بعد أن سيطر خوفه عليه..

يكابر بالهرب ووضوح هشاشته يطالني..

لطالما خاف من أي شيء يجعله ضمن التزامات..

طائرٌ مهاجرٌ بطبيعته

وطفل هشّ على هيئة رجل

هشٌّ حد عدم احتماله لأي حدث مُفاجئ،

لذا كان يغادر الأحداث قبل أن تعبر هي من خلاله..

يحبُ عيش كل الأمور بطريقة عابرة..

لطالما كان سلبيّة خوف تتنافر مع إيجابية طمأنينة سعيتُ جاهدة لوضعه تحت كنفها..

عذبني خوفه..

لم أتمكن من الالتصاق بجلده والازدواج كليًا به مهما رغبت بهذا..

وبالمقابل ما تمكنتُ من البقاء في منفى بعيداً عنه مهما امتلكت من المقدرة على فعل هذا..

فكرتُ ملياً بكل التفاصيل التي عبرنا سوياً من خلالها، وقررتُ البقاء قيد أمل أن أقضي مزيداً من الأيام قربه حتى تعافيه..

دواخلي المتألمة منه بقيت ترفضه إلى حد كبير، إلا أن رغبة وحيدة في زاوية قلبي استمرت بشنّ الحروب لأجل بقائي وها قد انتصرت وبات القرار كاملاً..

لن أغادر.

***

كنتُ أقعدُ على الكرسي خارج الغرفة حينما جلس سالم إلى جانبي ووضع لي كأس قهوة، التقطته بهدوء وبعدها ابتسمت:

- جئت مبكراً اليوم على غير عادتك!

- بل على أمل أن أبقى معك لبعض الوقت.

صمتُ لثوانٍ وبعدها سألت:

- منذ متى تعرفني؟

- منذ ليلة سقوطه، أراني صوراً من حفل زفافكما الذي ما تمكنت حضوره لأنني كنتُ في اليمن وقتها ولكني أعرف الكثير عنكما فلطالما حدثّني.. أتعلمين،

أطمع بمعرفة القصّة من جهتك لذا إن أردت الحديث فأنا أسمعك..

كنتُ بحاجة للحديث مع أي أحد حول أي شيء لذا ابتسمت بحزن وأنا أقلّب تاريخي وبعدها قلت:

- حسناً، لا بدّ أنك تعلم بأنني جئت هرباً إلى هنا!

- أجل كما أن أول لقاء بينكما كان في القرية..

واصلت حديثي:

- لم تكن الأيام الأولى في نيويورك مُرضِية بالنسبة إلي كما كانت بالنسبة لبقية الطلاب، ولم يكن هذا الأمر مُتعلقاً بغربتي في الولايات بل متعلقاً بغربتي الداخلية عن كل ما كنتُ أعرفه، فقد كنت للتوّ قد تغرّبت عن كل ما كنت أنتمي إليه، بلدي وعائلتي، لم أتمكن من الحديث كثيراً أو الاختلاط بالطلاب كما كان الجميع يفعل، فقط أتحدث مع ريهام لدقائق معدودة في غرفتي المشتركة معها بينما بقي أسامة يراقبني من بعيد وحسب، كان يقف دائماً خارج تجمّعات الشباب كما كنت أفعل، كنا منعزلَين إلى حد ما، وهالة الغموض المحيطة به لطالما كانت تشدّني ناحيته أكثر ولكن لم أكن لأقترب، على الرغم من سخطي من المجتمع والدين وكل أمر كان يمت لي بصلة إلا أنني شعرت بضرورة عدم الاقتراب واكتفيت باستراق بعض النظرات وحسب، ولطالما حدثت نفسي بأنه طالب في سنته الأخيرة هنا ربما، وكنت أقول سنته الأخيرة كون ملامحه تبدو كبيرة إلى حد ما، كما أنه لطالما كان يبدو متباه حد أنني ظننت بأن تجاهله من قبل أحدهم قد يكسره، شعرت بأنه عصيٌّ عليه أن يحلم كذلك، فقد كان يبدو واقعياً إلى حد كبير من خلال تصرّفاته، وغير هذا الكثير،.. أمر الفراسة هذا الذي ما نجحت به قطّ كان أمراً ما تخليت عن ممارسته أبداً، وفي

أحد الأيام قُطع تفكيري بصوته متسائلًا عما إن كنت قد أنهيت قراءة الكتاب الذي بين يدي لأجيبه باقتضاب "لا"، راقبني بحاجبين يرتفعان عن مستواهما الطبيعي ثم غادر.. أمر ما متعلق به جعلني أشعر بالغرابة وكأنني شعرت بهالة مختلفة تحاوطه تلك المرّة، عاكسة طاقة لا تشابه التي كانت تملأ المكان قبل حضوره..

أغمضت عيني بهدوء..

الرياح التي عصفت بداخلي فجأة لحظتها

والنسمة الناعمة التي داعبت شعوري

والأنفاس المنتظمة بطمأنينة كاملة..

مهلاً!

ألسنَ ثلاثتهن "الرياح، النّسمة والأنفاس" هن أصل كلمة هالة في الأساس!

أخذت نفساً عميقاً وأنا أقول "هذه الأحاديث بأكملها لأنه قد سألني عمّا إن كنت قد أنهيتُ قراءة الكتاب وحسب!"، سخرتُ من تفكيري وفتحت عيني لألمح هالتي التي أفكر بها "هو" واقفاً أمام الطاولة مجدداً إلى جانب آخرين من المفترض أن ألمح فيهم الهالة نفسها، ولكنه الأوحد الذي شعرتُ بها تتملّكه..

وضع ورقة على الطاولة دون أن يلحظه أحد وبعدها تلاشى من أمامي، تردّدت قبل التقاطها ولكنني كنت قد أمسكت بها بعد دقائق معدودة لأقرأ:

"تشارَكنا رحلة سفر كاملة وبضع خطوات هنا، فهل لي بمشاركة تفاصيل أكثر معك، إن كانت إجابتك نعم فهذا رقم هاتفي".

ابتسمت بهدوء وأنا أفكر بأنه يراقبني من مكان ما بلا أدنى شك، لذا

كتبتُ على الورقة:

"تشاركنا كل ما ذكرته كما وأننا نتشارك البناية نفسها، ولكنني لست صاحبة مقدرة على القبول بأكثر من هذا، يمكنك منح رقمك لفتاة غيري، انظر من حولك، آلافٌ هنّ من تجذبهنّ هالة غموضك ولكنني لست منهن"، وأطبقتُ الورقة وتركتها على الطاولة ومضيت، كان أمر ما يرفضه بداخلي، لست أنا، وليس قلبي، بل أفكار كبرت وهي تصبّ في داخلي، وإحداها هي أن كل جنس آدم طامع في إشباع رغباته العصيّة على رِقة النساء استيعابها، ولهذا الأمر فطريق مفترق لما أرغب به خير من طريق فيه منقلب سوء قد يصيبني.

توقفت عن الحديث وعيني معلقة على الأرضية ليقول سالم:

- شعور عدم الانتماء مؤلم حقاً ولكن لحسن حظّك أن قابلته في غربتك.

- بل لسوء حظي أن طالبت بحرية جعلتني بعدها سجينة لديه.

صمت هو ليستمر حديثي:

"ما الأمر؟"

كان هذا هو سؤاله للمرّة الألف الموجه لي بعد رفضي التواصل معه، تجاهلته وواصلت تقليب الكتب في رفوف المكتبة فأردف يقول بسخرية:

- لستُ من تبرأ منك ليتملّكك الحقد تجاهي.

وكأنما توقع إخراجي عن طوري بذكره لهذا الموضوع إلا أنني التفت نحوه ببرود ظاهر وأنا أقول متعجّبة:

- حقد يتملكني صوبك!؟

- أهناك أمر آخر قد يفسّر تصرفاتك هذه معي؟

- أجل، كأن تكون عديم قيمة حدّ أنني لا أرغب بالنظر إلى وجهك،

فهل ستكون لي رغبة بالحديث معك!

قهقه بصوتٍ مرتفع ثم أخفضه متعجلاً لتذكره أننا في المكتبة وقال:

- ولكنك تنظرين إلى وجهي الآن وتتحدّثين معي.

- معك حق كان من الأفضل أن أحطّم الجدار الواقف في طريقي عوضاً عن الحديث معه، فبكل الأحوال هو جدار ولن يستوعب ما يقال له.

تخطّيته ولكنه استمرّ في ملاحقتي وقال:

- أتخشين تعلقّك بي!

سخرية ظهرت على ملامحي مجدداً:

- تجاوزت تعلّقي بعائلة بأكملها أتخالُ بأنني وإن تعلّقت بآخر فسيكون أمرا بإمكانه تدميري؟

- تجيدين الحديث أكثر من التصرّف.

قلت بقلة صبر وأنا أنتظره ليبتعد عن طريقي:

- وبعد!

- عنيفة.

- لماذا.. أتجرحك كلماتي؟

- لا يُجرح أمثالي.

- أخشى إفساد إيمانك بهذا الأمر إن أنت استمرّيت بملاحقتي.

- لولا ملاحقتي هذه لكنت على الأرجح تجلسين بأحد الأرصفة تتسولين دولاراً واحداً منذ أول يوم.

- مهلاً، أكنت سأتسوّل بعيداً عن وجهك؟ راحة ليتك ما منعتها عني!

تخطّيته مجدداً وأنا أشير بيدي مودعة إياه..

بقيت لأيام أفكرُ بأمر رفضي له على الرغم من أن هناك ما يشدني نحوه، أتذكر بأنني كنتُ أقعد وسط محاضرتي حينما أمسكت بقلمي وكتبت كل أسباب رفضه..

على السطر الأول كتبتُ "ديني" فأنا قد تربيت وسط عائلة متدينة تجد في مصادقة الشباب ذنباً لا يغتفر..

نزلت نحو السطر الثاني وكتبت "مجتمعي" وكأنما لعنة الخوف منه لا تزال تلحقني حتى وسط نيويورك..

ابتسمت بسخرية وأنا أحدث نفسي..

هل لا زلت حقاً أتذرع بدينٍ منصف للرجل دونما المرأة، وبمجتمع تسبّبت أفكاره بانتزاعي من وسط شجرة العائلة، حسناً أياً يكن، لقد تخلى كل شيء عني وها أنا حرة الآن ولأفعل ما أريد..

كنت لحظتها كمن أرادت فعل كل ما يخالف ما آمنت به قبلاً لتنتقم من شعور النّقص الذي قد بات يسكنها، نهضت عن مكاني بغضب وخطوت خارج القاعة بصخب أفكار داخلي، ليقاطعني للمرة التي لا أذكر رقمها حتى وقبل أن ينهي جملته قلت متعجلة :

- أقبل صداقتك.

فاجأه قولي ووقف مشدوهاً وهو يراقبني بصمت وكأنما كل أحرف حربه قد انقلبت لهدنة سلام فجأة وبعدها قال:

- ستُكلّميني الليلة؟

- لا أمتلك هاتفاً لكني سأجد عملاً في أقرب وقت وسأجمع مبلغاً يكفي لشرائه.. وبعدها سأحدثك.

راقبني بغرابة أكبر، فكيف لفتاة في العام 2013 ألا تمتلك هاتفاً ولكنه هز رأسه موافقاً لما قلته وبعدها تركته في مكانه لا يحرك ساكناً..

حينما عدت للغرفة واستلقيت بتعب محارب على سريري بقيت أسترجع أحداث اليوم بأكمله وخوف مفاجئ تملّكني، ضربت على جبيني بندم:

- ما الذي فعلته يا وعد!

فكّرت فيما قد يظنّه عني، كما أنني خشيت بأنني قد تسببت لنفسي بمصيبة سُمعة سيفوح نتَنُها واصلاً لقريتي التي لها أنوف تلتقط مثل هذه الأمور بسهولة وبعدها تقترب لتنهش صاحب هذه السمعة دونما تردد..

استمر خوفي كثيراً ولكنني بقيت أخبر نفسي بأن مجتمعاً باعني لستُ لأشتري لنفسي سمعة فيه ويكفيني أن أعيش مستمتعة وحسب، أسقطت كل الأمور عني بما فيها الدين وبقيت متجرّدة من كل شيء مجدداً وكأنما ولدت للتو ويجب أن أحيط نفسي بقناعات جديدة، وقفت أمام المرآة وابتسمت بسخرية لكل ما حدث معي منذ الطفولة حتى ذاك الوقت، وضعت يدي على الحجاب الذي يغطّي شعري وانتزعته، ولم يكن الأمر الأوحد الذي انتزعته، بل انتزعت الدين الذي فكّرت بأنّه ما استطاع حماية حقي وفجأة هكذا رمشت "مسلمة" وفتحت عيني "لا دينية"، متجرّدة من أحكام الدين وعادات المجتمع كلها، ابتسمت لحريتي التي صنعتها لحظتها وخطوت فوق حجابي السابح بمياه أرضية حمام الغرفة وذلفت إلى خارجه، التقطت حقيبتي وغادرت المبنى من فوري لأبحث عن عمل جزئي أتمكّن من خلاله شراء ما أحتاج إليه وترك نقود المنحة لتغطي إيجار الغرفة وشراء الأغذية والكتب وحسب.

توقفت عن سرد الأحداث، راقبت الساعة على الجدار أمامي ثم وقفت

عن مكاني وأنا أقول لسالم:

- دوامك سيبتدئ بعد دقائق، على كلٍّ أشكرك على القهوة.

أوقفني صوته وهو يقول:

- مهلاً.. قلتها بنفسك "مجتمع باعك"، لم يكن الدين قط يا وعد، فكّري بهذا.

وغادر من فوره، ذلفت إلى الغرفة وجملته الأخيرة تتكّرر بداخل رأسي..

جلستُ إلى جانب أسامة وأنا أسترجع ملامحه المصدومة وقت قابلني لأول مرة وأنا قد أصبحتُ بدون حجاب، أدرتُ كأس القهوة على الطاولة أمامي يومها وأنا أقول بصوت منخفض:

- ما الأمر!

- فقط أنا لا أكاد أصدق بأنك يمنيّة.

لمستُ شعري وأنا أقول:

- أهذا ما يحاوطك بالشك!

- ليس الوضع مقتصراً عليه، لا أخفيك أمراً منذ قابلتك وأنت تبدين أقوى من فتاة عاشت في قوقعة طيلة حياتها، أي شخصٍ منعزل كما قلتِ بأنك كنتِ كذلك يكون هشاً.

- يحتّم الهروب على المرء أن يكون قوياً متمتعاً بحريته التي اختارها.

- مقتنعة أنت بصواب فعلك!

- جداً.

- فكرة انتقامك من المجتمع جعلك تتناسين الدين.

ضحكت وأنا أشير للعامل في المقهى وأقول بصوت مرتفع:

- كأس قهوة آخر وبدون سكر كالسابق من فضلك.

التفت نحوه وهو لا تزال ملامحه تحمل الجدية في طياتها فقلت متسائلة :

- تتحدث بجدية إذاً؟

لم يردّ فأردفت أقول:

- وهل أبدو لك كمن تناست دينها؟

- وهل من تفسير آخر؟

أخذتُ كأس القهوة وأنا أردّد:

- قد غادرته كلياً.

- تمزحين أليس كذلك؟

راقبت ملامحه وقلت بحدة:

- أيُفزعك أن تجلس مع مُلحدة على نفس الطاولة!

هز رأسه نفياً وبعدها طال صمتنا، وكأنما قد صُدم بأمر ما كان على استعداد لسماعه قط..

توقفت الذكرى عن الدوران بين جنبات رأسي.. أمسكتُ لحظتها بهاتفي وقمت بتنزيل إحدى المصاحف الإلكترونية بدون سبب واضح..

اخترت صفحة عشوائية لتكون الآية الثالثة عشر والرابعة عشر من سورة الإسراء: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاه طَائِرهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً • اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً}..

شعرتُ بخوف عظيم، كتابي بيدي وأنا التي أكتبه فهل هربي من الدين بحجة ظروف مررتُ بها بسبب الرجال كافية!

أمسكتُ بعنقي وأنا أشعر بالاختناق ودخلتُ لحظتها للمرّة الأولى في نوبة

هلع.

الفصل الخامس

الماضي - اليمن

في موطني تلد النّساء فتيات يُدوّن على بطاقة مولدهنّ سبب موتهنّ الأكيد "يمنية".

كنتُ في الثامنة من عمري حينما سمعتُ نساء القرية يتحدّثنَ مع والدتي بأن صديقتي التي تكبرني بعام واحد وحسب "عفيفة" قد قُتلت لأنّ رجلاً لمسها، كنتُ في عمر لا يسمح لي بمعرفة معنى ذلك، فقط فهمت الأمر بسطحية مُطلقة وبدأت أخاف الرّجال كافة من وقتها..

لم تكن عفاف الضحيّة الوحيدة في القرية فقبل مُغادرتي القرية ببضع أسابيع كانت "أشواق" ابنة العشرة أعوام قد تعرّضت للاختطاف بغرض الابتزاز من قبل أبناء شخص بينه وبين والدها مشاكل حيالَ أمور كثيرة، ولكن حينما علم الأب بما فعله أبناؤه وبعد أن جاؤوه يحملونها قرر إعادتها من فوره، اتصل بوالدها ليخبره بأن ابنته سليمة ولم يُصبها أي مكروه وأنه ما سمح لأحد بلمسها وأنه سيعيدها ولا يريد مشاكلاً، اشتعل والدها غضباً وسرعان ما انتشر خبر اختطافها، الجميع يتحدث عن الموضوع، وبالطبع فإن ما يتناقله الناس حتى ولو كان شربة ماء صغيرة سيُصبح مُحيطاً من خلالهم..

وصل إلى مَسامع والدها أنه قد تمّ اغتصابها، وبذكوريّة بحتَة قرّر غسل عاره كما يقال، طفلة يطلق سراحها على مرأى الجميع في مشهد حزين، تركض صوب والدها باكية وهي ترجو حمايته وبدلاً من أن يستقبلها حضنه تستقبلها

رصاصة من سلاحه لترديها قتيلة مُخضّبة بدمائها، لترتسم ابتسامة نصر حزينة على ملامح والدها..

زاد سخطي من تصرّفات الرجال تلك، فلولا قتلهم عفيفة بعد أن تمّ اغتصابها ما كنتُ أخفيت عن عائلتي أمر تعرّضي للتحرّش مرات عدة من أحد سكان القرية، أشمئز كلما فكرت بالأمر وأفيض بغضب دفعهم إياي نحو هاوية الصمت عن أشياء كانت تضرّني، كنت في الثامنة لا أفهم معنى التحرّش بتاتاً.. لكن إن كانت عفيفة تقتل لأن رجلاً لمسها فبمجرد أن لمسني رجل سأموت بلا أدنى شك إن هم علموا بذلك، ولم أكن على استعداد للموت بعمري ذاك لذا فضلتُ الصمت على التحدث..

لطالما عوقبنا نحن النساء بسبب أخطاء الذكور، رجل يحمل عيبه حسب قولهم فيُترك، وفتاة تفضح عائلتها فتُقتل، تعلو أحكامهم على أحكام خالقهم، ونحن الذين خلقنا سواسية بأخطائنا، لا يُغفر ذنبه لمجرد أنه بدون غشاء عذرية، ولا تقتل فتاة تعرّضت للاعتداء لمجرد غشاء كذلك..

أليس الإسلام قد أعطى عقوبات متساوية للجنسين!

ومنع عن النّساء ظلمهن!

وجاء ليدفنَ عادات الجاهلية في حقهنّ!؟

فكيف يُسقطون كل ما جاء ليتّبعون أهواءهم ثم يصرخون في وجه النساء بأن خروجهنّ من المنازل للدّراسة أمر لا يجوز!

يحرّمون ما أحلّ الله

ويحلّون ما حرمه

وهل من ذنب أشدّ وطأة من فعلهم هذا!

الفصل السادس

الماضي - نيويورك

"أنت لا تُدرك معنى أن أودع كل أسلحتي في صفّك، لا تفهم أبداً معنى أنني استسلمت لك وقتها إلى هذا الحد!".

جحيم الرجال أمر لا يمكن تجاوزه في حال كان الرجل مُتصلاً بامرأة ضعيفة لم تتجذّر بداخلها مثلي، لذا هي تسقط فوق أشواكهم في كل مرة وتبكي ألمها دونما محاولة النهوض، فقط يكفيها شعور أنها متمسّكة بأمرٍ ما وإن كان قاسياً، يكفي أن تميل عليه مُختلقة شعورَ استنادٍ وهمي، وأسامة كان وهمي اللذيذ هذا..

ما أصبنا صداقة عادية، تقربنا كثيراً، قضينا معظم الوقت برفقة بعضنا البعض، وعلى الرغم من أن ثلاث سنين كاملة كانت قد مضت وقتها إلا أنني لم أكن أعرف الكثير عنه، فقد نجح بإبقاء هالة غموضه قيدَ تشغيل..

شاركني تنقّلي بين الأعمال حتى أننا عملنا في بعض الأماكن سوياً قبل تخرّجه، فتلك كانت سنواته الأخيرة في دراسة ال IT وبعدها انتقل للعمل في إحدى الشركات المعروفة، ولست أدرك كيف تمكن من إيجاد عملٍ بتلك السرعة حتى..

فتاة مثلي لطالما كانت مهدّدة بالتعلّق بأي أمر يمكنه إشعارها بالأمان وسط غربتها..

فتاة مثلي تربّت على ضرورة وجود الذكور في حياتها تمسّكت به لتملأ فراغ

من هربَت منهم..

فتاة مثلي نشأت مع والد شديد الحماية كان قد أنهكها انفلاتها الكامل ذاك..

لذا.. فتاة مثلي وقعت بحبه..

أو لنقل بأنّ هذا ما فكّرت به وقتها..

ولكنني الآن أُدرك بأن وقوعي بحبّه لم يكن مرتبطاً بحاجتي إليه، لا أنا لم أقع في حبه لأنني كنتُ وحيدة أو ضائعة، أو لأني كنتُ منكسرة وأعاني من اتّساع فراغٍ في عمري، فكل تلك الأمور كنتُ قد اعتدتها رغم سوئها، حتى أنني كنتُ قد أصبحتُ ذو مقدرة عظيمة بالحفاظ على سلامي الداخلي رغماً عنها..

حتماً أنا لم أقع بحبه، بل تسلّلت ناحيته راغبة بهذا الأمر بكل حواسي، فهو الرجل الأول الذي ألفَت روحي هالته إلى ذاك الحد، والرجل الأول الذي بدا مسيطراً بحنيّته وسط ساحتي، والرجل الأوحد الذي حينما نطق اسمي وددت لو أنني أسجله فأنتشي بحروف اسمي الواحد تلو الآخر كلما سنحت لي فرصة الاستماع إليه..

أتذكّر أنه في ذكرى مغادرتي الأولى لليمن كنت قد رافقت ريهام وعهد إلى المقهى علّي أخرج من شعور ضيق أصابني إثر الذكريات، ولكني فجأة وجدت بأني قد وجّهت نفسي نحو ضيق أكبر، أرسل لي رسالة لحظتها رغماً عن انشغاله بعمله الجديد وكأنما شعوري متصل به ليسألني بحنيّته واهتمامه الذي اعتدته إن كنت مستمتعة بتواجدي معهما أم لا لأجيبه بنفي وحسب..

بعد دقائق معدودة كان قد قطع عمله كلياً ليرن هاتفي، أجبته بلهفة لأسمع

اسمي بصوته لأول مره وهو الذي قد اعتاد على مناداتي بـ "Lady" طوال ثلاث سنوات:

- وعد، ما الأمر؟

وعد!

أهذا حقاً اسمي الذي يناديني به الجميع منذ ولدت!

ضحكت دواخلي، طارت فراشات قلبي وقلت أجيبه:

- لا شيء.

لم تكن إجابة مُكابرة بل إجابة تنم عن الحقيقة فصوته قد مسح حزن قلبي حتى ما بقي منه شيء..

- وعد حقاً لماذا لستِ مُستمتِعة؟

يا إلهي.. ينطق اسمي مجدداً ويَخالني لا أزال غير مستمتعة!

- أشعر بتحسّن الآن.

وبعدها ضحكت برقّة ليرتاح ويقول:

- ستكونين بخير، وبالمناسبة ضحكتك جميلة فلتضحكي دائماً.

ننهي إتصالنا هناك وأشعر وكأنني سأضحك طوال العمر بسببه، بحّة صوته، طريقته في الحديث والإطراء الذي يعبر صدري، كلها أمور أحبها حد أنني وددت لو أني أصرخ لحظتها مُصرّحة بحبه رغماً عن انعزالي وانسحابي من جميع الأشياء إلا أنني أردت إعطاءه يدي برضاً كامل ليخرجني من الظلام إلى النور..

- الحلو عم بيتضحّك.. شو في؟

كان هذا صوت ريهام حينها اقتربت منها بحركة طفولية وأنا أريها رسائله

على الهاتف وأقول:

- ألم أحذّركن من الحب كثيراً!

ضحكت عهد:

- جعلتنا نكرهه إن صحّ القول!

- حسناً يبدو أنني كنتُ مخطئة، فمجرد سماع صوته وهو ينطق اسمي ينجيني من سوء العالم بأكمله، إن قلت عن الحب قبلاً بأنه قاتل فهو كذلك، ولكنه قاتل ناعم، يواجه خشونة العالم ليقضي عليها لا أقل ولا أكثر!

- فتيات أحقاً وعد هي من تقف أمامي؟

ابتسمت بحب:

- وهل تدركنَ الحب أنتنّ يا عهد لتصدّقنَ بأني نفسها وعد فقط بنكهة حبّ مُضافة وحسب!

وغادرتهن متعجلة، لم يكن الوقت المناسب قط لتبرير اختلاف شعوري وقتها، أنا التي رفضت الحب قبلاً أدركت بأنني كنتُ أرفضه لأنني ما عرفته قط، كنت أخاله تعب فارغ المعنى وأمر سيعجز عن منحي شعوراً كاملاً، ولكنه تمكّن مني، وحده من صاغ لي الحب حتى دونما محاولة منه، كنا لا نزال أصدقاء وقتها ولكن بالنسبة إليّ كان قد أصبح كل شيء، كل شيء ودونما استثناء حتى.

***

أي أمر قد أجنيه إن هو وقع بحبي!

"لا شيء"

أو ربما كل شيء..

لا أدري!

مشاعري في تلك الأيام كانت أشبه بمتاهة

واقعة بحبه وراغبة بالنهوض

مُتعبة من استنزاف مشاعري على أمر غير مؤكد

ومستلذّة بغرابة وغموض علاقتنا تلك

ولكن ألم يحن الوقت!

سألت نفسي مراراً وتكراراً هذا السؤال وكل ما فيني يأمرني بأن أصرّح بمشاعري..

ولطالما كنت فتاة آمنت بأن الحياة أقصر من أن نؤجل أي أمر فيها..

فكّرت في ماذا لو أنه غادر هذا العالم قبل أن أخبره بحقيقة مشاعري؟ وبكيت ندمَ تخيّلي وبعدها أرسلت له..

"أرغب برؤيتك حالاً.."

بعد دقائق كان قد أرسل لي عنوان حديقة تقع بالقرب منا وبسرعة فائقة وجدتني على تلك الرقعة، الجو ماطر وأنا قد غادرت دونما مِظلّة حتى؛ فقد كان جلّ تفكيري يدور في فلكه..

وصل يتساءل عما بي، لأقول دونما مقدّمات:

- أحبك!

وأغمضت عيني متعجلّة..

لم أكن بحاجة لمزيد من الوقت لأتأكد من مشاعري -فقد بدت لي وقتها أكبر من أن تكون كاذبة- بل كنتُ كمن وقف مُعاتباً ذاته أن استهلك سنة بأكملها قبل تصريحه بحبه..

فتحت عيني ببطء..

ورحتُ أراقب ردّة فعله كمرئية بطيئة الحركة..

يأخذ نفساً عميقاً مُلتقطاً كل ذرّة حب صدرت عن كلمتي..

يرمش ببطء ليحتفظ بتلك اللحظة في دفء ذاكرته وبعدها يسلّط بصره على وجهي كضوء مسرح عتيق وهو يهمس بصوته المبحوح :

"أنا أيضاً أحبك"..

بدت الكلمة لي كألف كتاب شعر غزل..

شعرت بها تحتضن خوف عمري وتطمئنني، نزفت خوفي على هيئة دموع، وضعت يدي على وجهي وأجهشت في بكاء عميق..

لحظة كتلك استحقّت التّخليد في ذاكرتي..

والآن ورغم إصابتي البليغة لا زلتُ أشعر بالفخر أن أدركت حقيقة مشاعري بوقت مبكر، لست نادمة قط على ما فعلته، كان حقيقتي التي لا أزال أحتضنها حتى اللّحظة ككنز يصعب التفريط به، حقيقة حبي له أمر يستحيل أن يدفنه الندم وإن بكيت حداداً قتله إياي لأعوام عديدة، هو الأمر الأوحد الذي إن عاد بي العمر عِشتُه مجدداً..

العمر أقصر من أن أقضيه في ندم وأطول من أن أقضيه في اشتياق..

كان العمر مفصّلاً على مقاس الحب وحسب، الحب نفسه الذي رفضه هو في نهاية المطاف.

***

اتصل بي بعد بضعة أيام منذ اعترافاتنا تلك وهو يطلب مني فتح باب الغرفة، وحينما فتحته كان قد وضع على مقبض الباب بالوناً ما إن التقطه حتى

وجدت شيئاً بداخله، فقعتُ البالون مُتناسيةً خوفي من الأصوات العالية لتخرج الورقة المكتوب فيها عنوان أحد الشوارع ووصفٌ لأحد المحلات، وبعدها أمرٌ فوري بذهابي إلى هناك.. ربع ساعة وكنتُ قد وصلتُ إلى الوجهة ليهبني صاحب المحل ورقة أخرى مُرفقة بقطعة حلوى وهو يبتسم، وعلى الورقة تلك كان قد كُتب "أعلم بأنك تكرهين الحلوى وتجدينها أمراً مُضراً بالصحّة ولكن هي قطعة واحدة حُلوةٌ كأنتِ، فلتأكليها ولتغادري من فورك للعنوان التالي"، ضحكت وأكلتها ثم وضعت غلافها في جيب مِعطفي وغادرت، كانت المحطّة الثانية هي مكتبة على نفس الشارع..

ما إن دخلت حتى تقدّم نحوي البائع وأعطاني ورقة أخرى...

بالكاد كتمتُ ضحكاتي لتلاعبه ذاك بي وأنا أقرأ عليها

"حسناً أظنّ بأن هذا يكفي... أدرك بأنك تُحبّين الكتب كثيراً لذا توجهي للرفّ الخامس إلى جانب الباب وابحثي عن كتاب تاريخ بين كتب الرياضيات تلك وستجدين الورقة قبل الأخيرة موجودة بين طيّاته"، توجهت مسرعة أبحث عنه، ووجدته بعد دقيقة واحدة تقريباً.. أخذت الورقة من داخله لأجد المكتوب فيها

"أتصبحين سطور تاريخي القادم؟..

انظري إلى مكان الكتاب الذي انتشَلته للتوّ"

كان هناك خاتم ماسّي رقيق مُعلقة عليه ورقة صغيرة عليها عبارة "هل تتزوجينني!"، ضحكت بحبّ واتصلت به قائلة:

- هل تمزح؟

- أيبدو لك الأمر كذلك؟

- إذاً فالأمر جدّي حقاً؟
- كما وأنني أترقّب إجابتك، أتقبلين الزواج بي يا وعد؟
لمعت عيناي قبل أن أقول:
- نعم.
سمعت صوته لحظتها يأتي من الخلف قائلا:
- نعم ماذا!
التفت بارتباك شديد، وبنبرة بكاء سعيدة أجبت:
- نعم أتزوّجك!
وضعت الخاتم حول بنصري الأيمن وأنا أشير له به وغادرت من فوري بعدها...
أنا أعلم بأنني لحظتها كنتُ متجردّة من الدين ولكن كان ما يزال هناك شيء ما يردعني عن بعض الأشياء، لذا أنا لم أسمح له يوماً بلمس يدي حتى وأبقيت جلّ ما بيننا مُقتصراً على الأحاديث وحسب.
***
حسناً، لأعترف بأن ريهام قد حذّرتني منه في بادئ الأمر..
يومها وبعد أن عدتُ للسكن بخاتمه لمحته من فورها وتساءلت بفرح عمن يكون صاحبه ولكن ما إن قلت اسمه حتى امتعضت وقالت لي دونما لفّ ودوران:
- لا تتزوجيه.
بدا لي الأمر وكأنها تمزح لكنها واصلت بملامح جدية:
- سيؤذي قلبك، أسامة هذا لا يعرف معنى الحبّ، حتى أنه قد ارتبط

وانفصل أكثر من مرة منذ سنته الأولى هنا.

ضحكت:

- ربما لم يعرف الحب قبلي ولكنه الآن قد عرفه!

تحجّجت بمعرفتها إياه قبلي، وإدراكها لكل صداقاته وعلاقاته العابرة ولكنني رفضت كل ما قالته لي وبقيت أجدني مختلفة عنهنّ، لذا فلستُ لأمتلك نهاية معه مثلهن، فكرتُ بأن لا أحد يعرفه غيري أما هم فيجهلون حقيقته، ولكن الحقيقة كانت أنني وحدي من كنتُ أجهله أما هم فجميعاً كانوا يعرفونه جيداً.

تم الاحتفال بالخطوبة في أحد المقاهي وسط مجموعة بسيطة من الناس، ريهام المجبرة على المجيء وعهد وثلاث فتيات أخريات إضافة إلى أسامة وقرابة سبعة أشخاص من معارفه..

وكأيّ اثنين كنا سعيدين للغاية في الشّهر الأول بعد خِطبتنا ولكنه سرعان ما تبدّل، أسامة الذي أحببتُه بات شخصاً آخر تماماً، يغيب اليوم بأكمله داحضاً فكرة انتمائي إليه وكأنما قد شعر بالندم على إقدامه بخطوة كتلك ولكنني آثرت التمسّك به رغماً عن هذا..

كنتُ في السّكن يومها أتجهّز لذهابي للعمل..

وأثناء مغادرتي قابلتُ فتاة لطيفة على المصعد، تبادلنا الابتسام قبل أن تسألني عنه..

دارت بي الأرض دورات عدّة وأنا أخشى أن تكون هي السبّب في تغيّره عليّ، قلت بغيرة بارزة:

- أنا خطيبته.

رفعت حاجبيها وهي تقول باستغراب:

- خطيبته!

- أجل.

مدّت يدها وهي تهمس لي وعلى ملامحها تظهر الصدمة:

- بالمناسبة أنا أخته.. ماري.

شعرت بالحرج الشديد من موقفي معها وعما ظننتها عليه، ضحكت بارتباك وأنا أقول:

- المعذرة لم أكن أعرف بأن له أختاً.

ابتسمت باستفزاز وكأنما تقول لي "خطيبته ولا تعرف شيئاً عن عائلته!"، تداركت الموقف أخيراً وأخبرتها بأنه سيكون في الشركة في ذلك الوقت، ثم سألتها إن كانت راغبة في مرافقتي إلى المحل الذي أعمل به لنتّصل به فيمر عليها حال انتهاء دوامه.. قبلت وبعدها غادرنا، كانت أخته مُختلفة جداً عنه حد أنني شككت في بادئ الأمر، لم تكن محجّبة، تملك ملامح أجنبية، عينين زرقاوين، بشرة بيضاء وشعر أشقر، بينما كان أسمراً بعينين سوداوين وشعر يميل للبني الداكن ولكنني رجّحت أن تكون أخته من أحد والديه اللذان لا أعرفهما ولم يحدّثني عنهما قط، شعرتُ بالتوتر أمامها وكأنما قد جاءت لتقييمي، أرسلتُ له رسالة يومها لأخبره عن وجودها برفقتي ولكنه لم يجب، اتّصلت به مراراً وتكراراً دونما جدوى فجهازه مغلق، اعتذرت منها بحرج شديد حينما تأخر الوقت وأنا أخبرها كاذبة بأنه قد اعتذر بسبب عمله المكثّف ولكنني لمحتُ ابتسامة سخرية على ملامحها وهي تكتفي بهزّ رأسها ثم تغادر المحل..

بعد ساعات قلق حادة عبرتُ فوقها وأنا أنتظره قبالة باب غرفته جاء..

راقبني بهدوء ثم أدار المفتاح في قفل الباب دون أن ينبس ببنت شفة..

بدت لي ملامحه غير مرتاحة لذا اقتربت منه بخوف ولكنه طلب مني الابتعاد ببساطة وبعدها لم يتحدّث، فكرتُ بأنه قد يكون متعباً لذا قلت بأنني سأطلب العشاء بينما يرتاح هو لبعض الوقت، ولكنه لم يجب كذلك، بدأ القلق يحتّلني لذا قررتُ سؤاله.. ابتسمت عند وُلوجي الغرفة وجلست على الأريكة قبالته دونما حديث، راقبت عينيه الهاربتين ثم قلت بعد عدة دقائق:

-يبدو أنني قد وقعت في خطأ لا أدرك ماهيّته!

التفت ناحيتي:

- لا أختي ..ولا أي شخص آخر، لا أريد رؤية أحد.

- والسّبب؟

- لستُ مُجبراً على التّفسير.

امتعضت وأنا أرد بهدوء:

- ومن قال بأنك مجبرٌ يا عمر وعد أنت، ولكننا لن نتزوج لمشاطرة البيت وحسب، مشاكلك.. ما يزعجك.. ما يؤلمك، كلها أمور تعنيني معرفتها.

بدا شخصاً مختلفا أمامي، لم يكن أسامة الذي أعرفه، رموشه طارت عالياً بنظرة سخرية واضحة ثم نهض دونما إجابة، لحقته وأنا أقول:

- أسامة!

قال بقسوة:

- قلت لك بأني لستُ مجبراً، نفّذي ما طلبته منك، هذا كل ما لديّ.

غادر الغرفة مجدداً تاركاً إياي وسط صدمتي الأولى منه.. تركني باكية أُقلّب كل أمر متعلّق به بداخل رأسي، لدقائق عدة بقيتُ واقفة في مكاني لا

أحرك ساكناً قبل أن أجلس على الأريكة مجدداً وأنا أتساءل عن ماهية هذا الرجل الذي اخترته ليعوضني عن كل الرجال في ماضيّ، مؤسف أنني شككت لحظتها بالأمر الوحيد الذي كنت أبدو مكتملة الثقة به طوال حياتي، أغلقت باب الغرفة وتركتُ له المفتاح تحت أصيص بجانب الباب كالعادة وعدتُ إلى غرفتي المشتركة مع الفتيات في البناية، ونمت ليلتها بقلب مُثقل لأنهض وحيدة دون رسالة منه، كانت قد انتفضت المشكلة الأولى ما بيننا آنذاك، وعلى الرغم من كونه المخطئ في حقي إلا أنني كنتُ الأولى في احتواء خطئه..

فكرت يومها بأن الأمر لا يستحقّ غربة أيام وأن عليّ حل الأمر وبتر أسباب حدوثه من الجذور، قرّرت منحه مساحة كاملة فيما يخصّ عائلته التي لطالما رفض الحديث عنها، وجئته للمكتب مُعتذرة بباقة ورود عباد الشمس الذي أدرك الآن أسباب اختياري لها تحديداً فلطالما كنتُ كما "كليتي"* محبة أعطي دونما مقابل وهو كان قد أصبح كـ "أبولو" لا يلتفت لي حتى لو أنني تجمّدت اشتياقاً أثناء انتظاري له..

يومها رحّب باعتذراي الأول متعجلاً..

كان كمن يتغذّى على إهداري في سبيله، ولطالما تساءلتُ عن الأمور التي بات يُغذي بها شرّ روحه بعد انفصالنا!

*أسطورة قديمة تحكي أن كليتي الحسناء صاحبة الشّعر الذهبي حينما رأت أبولو -إله الشمس لدى اليونان- يعبر السماء أُعجبت به وقالت لو أنه ينظر إليها فحتماً سيعجب بجمالها كذلك، لكن أبولو بقي مشيحاً بوجهه عنها ولم ينظر باتجاهها قط، طال انتظار كليتي واستمر لأيام وهي تراقبه واقفة في مكانها حتى

غرست قدميها في الأرض وتحولت لزهرة دوار شمس بعدها.

الفصل السابع

عاد له وعيه أخيراً، راقبني بهدوء تام، لأقترب منه بخطوات مُرتجفة وهو يتلفّت في أنحاء الغرفة لثوانٍ وكأنما يستغرب عودته للحياة مجدداً ثم يعلّق بهدوء يليق بشخصه:

- من أنتِ؟

كان هناك خطر فقدانه للذاكرة إثر اصطدام رأسه كما حدثني سالم من قبل، لذا لم أُصدَم من سؤاله ولكني أقسم بأنني تمنّيت لو أنني متُ على أن أهبط من ذاكرته هكذا فجأة..

مسحتُ دموعي وراقبته بينما سلالة أحزاني تتضائل، نسيت أننا قد افترقنا، نسيت أنه غائب يزور ذاكرتي خلال كل نفس صادر مني ليؤلمني، اقتربت مُتعطشة هذه المرة، راقبته بخوف مُمتزِج بحبي القديم وسكنت صدره وسط دهشة منه، وبعدها قلت له هامسة بلهفة:

- لا تخَف، أنا ذاكرتك المفقودة.

***

"كيف لك أن تخطو بحذر على زجاج!".

- ما طالبت قبلاً بانحيازي بعيداً عن عاداتنا أو ديننا، طالبت بحقي باختيار القرارات التي تخصّني، باتخاذ الخطوات التي أجدها صائبة وإن انحدرت ناحية الجحيم أحياناً، وددت أن أتعلم من أخطائي كما الذكور، وأن أشعر بالحرية التي خلقها الله صفة ملازمة لمخلوقاته، وددت لو أنني أصرخ قائلة بأن كوني فتاة لا

يعني أنني مجرد عيبٍ مجتمعي ينتظر الرجال موتي ليتوقفوا عن القلق بشأني، هذا جل ما طالبت به، وهل فيما سألته خطأً ليضجّ المجتمع الذكوري من حولي بمحاولة لإسقاط فكري!

- وأنا!

راقبت ملامحه لوهلة قبل أن أقول:

- وأنت ماذا؟

- هل كنتُ ضمن رجال قيّدوك!

ابتسمتُ له وأنا أنهض عن مكاني متجنّبة الإجابة:

- لترتَح قليلاً.

ثم غادرت وعنق ذاكرتي يلتفّ للوراء مراقباً ماضيّ معه، ماضيّ الذي مهما حاولت شنقه قاوم، لتضعف يدي الشادة عليه ويستعيد هو قواه، فيستيقظ مجدداً وتنام سعادتي محله، وبعدها لا تستيقظ أبداً.

***

وجوده من حولي ما عاد مريحاً كما كان..

عاد لغرفته هو وذاكرته المبتورة التي جعلتني أؤجل فكرة انتقامي منه حتى أجل غير مسمى..

عرقلني تعبه عن خِطّتي والنظرة التي يلقيها علي جعلت غضبي يخفت شيئاً فشيئاً..

كنتُ قد سمعتُ قبلاً بأن المرأة تستطيع أن تحتوي حتى وهي تتألم وأن الرجل يعجز عن ذلك، ولكنني اليوم برفقة خطواته التي يجرحني حضورها قد تأكدت من هذا الأمر..

لطالما حاولتُ احتواءه وأنا مُتعذّبة
ولطالما عذّبَ هذه التي أحبّته..

كان يقف أمام المرآة حال وصولنا يراقب ملامحه ثم يسألني ضاحكاً عما إذا كان نفسه الذي في الصورة المُعلقة على الحائط..

ابتسمت ابتسامة باهتة وأنا أهزّ رأسي إيجاباً ليقترب مني قائلاً:

- هذا اليوم العاشر منذ قابلتك، أقصد منذ قابلتك بعد فقدان ذاكرتي بالطبع ولكنك لا تتحدّثين كثيراً أهناك ما يزعجك فيني؟

عاودت التبسم وفي ذاكرتي صوت قصيّ يهتِف: "لا أرغب بسماع صوتك!".

الصوت هو نفسه الذي كنت أستمع له لحظتها، صوته هو..

تجاهلت السؤال وقلت مبتسمة:

- إن شعرت بالجوع فستجد أرقام بعض المطاعم في الورقة المعلّقة على الثلاجة.

- أين ستذهبين؟

- لديّ بعض الأعمال وبعدها سأعود لغرفتي، سأزورك صباح الغد وإن احتجتَ أمراً يمكنك إخباري، بالمناسبة أنا في الغرفة المقابلة.

- تعودين لغرفتك؟ لمَ؟ ألسنا متزوجين!

لم أقوَ على الإجابة، غادرت مُسرعة وحينما صعدتُ إلى السيارة وجدت علبة أغراضه التي جعلوه أعزلاً منها في المشفى لا تزال على الكرسي، التقطتها وفتحت محفظته لأتأكد من صورتي الموضوعة فيها، كانت لا تزال هناك، تنهّدت بشبه ارتياح ثم صعدت مجدداً، فتحت باب الغرفة ودخلت، كان

يجلس على السّرير ممسكاً بصورة تضمّنا وحينما همست باسمه وقبل أن يلتفت بدا كمن يمسح عن خديه دموعاً، تجاهلت الأمر وقلت متعجلة بأني قد وضعت محفظته وبقية الأغراض على الطاولة ثم غادرت متعجلة.

***

"إن كنتم تَبتِرون أجنحتنا فلا يسوؤكم ظهور شياطيننا بعدها".

قبل عامين من الحادث:

لم أعر تفاصيله القاسية في حقي أثناء الخطوبة أي اهتمام، بل قمتُ بتبريرها له وبعدها تزوجته..

خلته سيتغير ولكن الأمر بدا أصعب مما توقعت.

بعد شهرنا الثاني منذ تزوجنا كنتُ قد أنهيت روايتي الأولى بعد أن كانت الفتيات قد شجعنني على اتخاذ خطوة كتلك بعد قرائتهن لبعض مما كتبته، ذهبتُ إلى جانبه وهو يجلس على جهازه المحمول ولم يكن يضاهي سعادتي لحظتها أي شيء..

بقيت أراقبه قرابة الساعة قبل أن يتنّهد قائلاً:

- انتهيت، والآن ما الأمر؟

بدون مقدمات قدمت له فلاشاً وطلبت منه فتحها..

بعد فتحه إياها تساءل عن الرواية الموجودة فيها..

ابتسمت:

- لطالما كنتُ مهووسة بالكتب التي كانت تستعيرها من أجلي المعلّمة من بيت الفقيه في القرية، ولطالما شعرت بأنني قادرة على فعل ما يُضاهيهنّ جمالاً وفعلتها أخيراً.

رفع حاجبيه:

- وبعد!

- سأنشرها.

- أتيتِ لأخذ الإذن من زوجك أم لإخباره بقرارك وحسب!

استغربت ردّه لذا بقيت أراقبه بصمت قبل أن يردف بقوله النّازل كما صاعقة ليصيب قلبي:

- لست موافقاً.

وهمّ بالنهوض..

أمسكتُ بيده وأنا أقول:

- أتتحدّث بجديّة؟

- وهل يبدو علي أنني أمزح!

- والسبب!

- فقط لا أجده أمراً يناسبك.. ولا أريد لزوجتي أن تظهر في الساحة الأدبية أو غيرها.

- أنا من أُقرّر هذا الأمر، ولا يحقّ لأحد غيري قول إن كان الحلم يناسبني أم لا.

قال بدون التَفاتة منه:

- أتكسرين كلمتي!

أفلتُّ يده وأنا أبتسمُ بخيبة ثم قلت له بنبرة حزن فاضحة:

- أتكسرُ قلبي؟

لكنه لم يجب ورحل..

لطالما كسر لي قلبي ولطالما تمسّكتُ به، ولكن تصرفاته الواحدة تلو الأخرى كانت تجبرني على التخلي، استمرت محاولات إقناعه لي بعدم الخوض في حلمي وإن كان هناك تفسير يزورني لهذا الأمر الآن فما هو إلا لأنه خشي أن أصل لمقام يشعره بأنه أقلّ مني، لقد خشي تفاقم نجاحي في حضرة استقرار مقامه..

اختارني في بادئ الأمر كوني متنصّلة من كل الأمور التي ستجعله يشعر بأنه أقل مني..

أتذكر أيضاً بأنه قال لي يوماً بأنه ما اختارني إلا لأنني كنتُ ذكية وجميلة، أشبع غروره بأنه متزوج من امرأة كذلك، كما اختارني لأن لا عائلة لي قد أفاخر فيها في حضرة صمته حيال تفاصيل عائلته..

كان الحب مجرد نفّ وقعت على إثر وهمه مع شخص نرجسيّ يزوّدني بالضّعف لأشعر بالقوة إلى جانبه فأعجز عن التخلي عنه.. يحبسني في زنزانة الحياة ليكون هو كل أحلامي التي لا يسعني الإقلاع عن شعور رغبتي بها، اختارني ليتباهى بقوّتي أمام البقية.. قوتي نفسها التي يحاول قمعها كلما بقينا بمفردنا..

وقتها تراجعت عن نشر الرواية بالفعل بعد تحريضه إياي على التخلي عنها، ولكنه ما اكتفى بهذا الأمر نصراً له، بل خطّط لبعد أعظم جعل الحزن يعتقلني ويرفض إطلاق سراحي بعدها.

***

رجل يرفض حمل المسؤولية لم يكن من الصّعب عليه تركي في زاوية العمر لأشهر عدة ويغيب، بقيت أنتظر عودته بغباء، أقلّب وعوده المخترقة جدار القلب منذ عرفته..

لم يضع إشعاراً مسبقاً عن كونه سيتغيّب، غادر البيت والشركة، بقي هاتفه مغلقا كأنما قد هرب مني ومن كل ما يربطه بي..

تساءلت عن كمّ ندمه الذي جعله يختفي..

ما مرت ليلة واحدة إلا وكنت أعبرها بالسّهر علّه يخترق تفاصيلها برسالة فارغة أو نبرة صوت أحبها ولكنه في كل مرة كان يخون انتظاري ويستمر في غيابه..

ما كنتُ قادرة على التركيز في أي أمر سواه..

خوفي يتفاقم في أن يكون أمر سيء قد أصابه..

عاودت العمل في المحل مجدداً لأتمكن من تحمل تكاليف الكهرباء والماء في غرفتنا..

ليأتي بعد خمسة أشهر، يدخل ضاحكاً وهو يتحدّث على الهاتف الذي علمت فيما بعد بأنه قد قام بتغيير شريحته..

ابتسمتُ لكونه بخير وجلست على الأريكة، غطّيت وجهي بكفيّ باكيةً ضحكه الذي ملأ مكاناً كان قد أصبح أشبه بتابوت ممتلئ بالخوف بالنسبة إلي قبل حضوره..

اقترب مني متسائلاً عن الذي يبكيني وكأنما يجهل أسبابه..

هززت رأسي بـ "لا شي" واحتضنته مؤثرة عدم سؤاله عن أي أمر يخصّ غيابه، فلطالما كره أسئلتي المخترقة خصوصيته كما كان يقول، ولست لأجازف بسؤال قد يضيق له خاطره فيتسبب بغيابه عني مجدداً.

الفصل الثامن

"كان من المفترض أن أتلحّف أمان رقعة جمعتني بك
ولكنك على حين غرّة بدأت حربك ضدي..
شوّهتَ ملامحي فخاف مني النصر وهرول باتجاهك..
خاسرة مُعذبة هي أنا لأنكَ أنتَ المنتصر!".

شعرتُ باختناق وضياع شديدين بعد مرضه وابتدائه جرعات الكيماوي التي كانت تعبرُ جسده وتهلكني أنا، والعرق الذي كان يَنِزّ عن جبينه بعد كل جلسة كان يتسبب لي بغرق في أوجاعي، وشعره الذي أزاله عن رأسه بعد وقت خبّأته كقطعة ثمينة بداخل خزانتي..

زدت انطوائية، وكان المكان الوحيد الذي أقصده بعد المحاضرات التي ألقيها في الجامعة كوني معيدة في القسم، أقرأ له، أهدهد تعبه لينام وبعدها أخرج لأشتري شيئاً يؤكل لأستعيد به جزءاً من طاقتي..

بعد جلسته الثالثة كان سالم يجلس إلى أمامي وهو يراقب يأسي ويخبرني بأنه قيد تحسّن وبعد بضع جلسات سينتهي هذا الكابوس..

يظهر على ملامحي تعب المدة التي مرت وتعب أفكاري عن أنه لربما لن ينجح العلاج، ودون أن أشارك في موضوع جلساته وجدتني أسأله بخوف:

- كيف تعيش وأنت تدرك بأنها لن تعود؟

أقصد أنا بقيت طوال فترة غيابه قيد أمل بعودته ولكن كيف هو الأمر وهي قد غادرت هذا العالم بأكمله!..

وكأنما أردت لإجابته أن تواسي خوفي..

ابتسم ثم قال:

- تعيشين قيد أمل عودته وأعيش قيد أمل لحاقي بها، الأمر لا يختلف كثيراً..

نهض عن كرسيّه كعادته كلما بدأ بالحديث عنها وكأنما يداري دموعه عني وبعدها أردف قائلاً:

- كانت فضاءاً بأكمله، عينيها أشبه بنجمتين وكلما رمشت أظلم عالمي فكيفَ تظنين هو حالي من بعد موتها!..

- قلت لي بأن الكثير من الوقت كان قد تسرّب من بين يديك قبل لقائكما أود معرفة المزيد عن هذا إن كان لديك بعض الوقت..

واصل تبسّمه:

- بعد اعترافي بحبي لها ما وصلتني إجابتها لمدة طويلة، فقد كان والدها مريضا جداً في الفترة التي تلت اعترافي.. وحينما بدأ بالتحسّن كان أخي الذي يكبرني ببضعة أعوام قد أخبر أمي بأنه يريد أن يتقدّم لخطبتها.

فتحتُ عيني بصدمة لكلامه:

- وتزوجها!

- تمت الخطوبة، بالطبع لم يكن يدرك بأني أحبها وهي لم تكن تدرك بأنه من طلب يدها فقد قيل لها "ولد عبدالله" ولم يحددوا اسماً لذا كانت تخاله أنا وقبلت.. حرائق نشبت في صدري في بادئ الأمر.. اتّصلت بها يوم الخطوبة وباركت لها بألم يصعب وصفه وبعدها أغلقت الخط رافضاً سماع تبرير منها، كنتُ أخالها لم تجب عما إن كانت تبادلني المشاعر ذاتها أم لا لأنها كانت

واقعة بحب أخي، عشت جحيماً لا حياة وسط ظني هذا وقررتُ بعدها مغادرة اليمن والدراسة هنا في أمريكا، وبالفعل بدأت بدراسة الهندسة فور استلام شهادتي الثانوية..

قلتُ باستغراب:

- مهلاً.. هل قلت هندسة!

ضحك بهدوء:

- درستها لسنتين على التوالي، ولكن أثناء عطلتي الثانية باليمن تجرّأت أمان واتّصلت بأخي لتخبره بأنها قد قبلت وهي تخاله أنا، ولك أن تتخيلي حجم خجلها وهي تخبره بأنها تحبني وبأني أحبها كذلك، لقد كانت شجاعة أكثر مني.. جاء أخي إلى غرفتي يومها وعاتبني قليلاً لأني لم أخبره بهذا الأمر مُسبقاً وأكّد لي بأنه ما كان سيقف كعائق بيننا وأنه كان قد وجدها أفضل الخيارات وقتها وحسب، لا أنه قد اختارها بناءاً على حب أو نحو ذلك، نزل كلانا نحو الطابق السفلي بعدها وبدأ هو الحديث مع والدتي وأخبرها بأنه يود فسخ الخِطبة، لا يزال بإمكاني حفظ تفاصيل ملامح والدتي لحظتها، تفتح عينيها بصدمة ثم تقول بصوت مرتجف:

ـمن أخبرك؟

تساءل أمجد باستغراب:

- أخبرني ماذا؟

لتلقي على سمعنا أسوأ خبر سمعته طيلة حياتي:

- أقصد من أخبرك بأنها مصابة بسرطان في الدّم!

أقسم بأن قلبي كاد أن يتوقف، قلت بخوف ممتزج بعدم تصديق :

- سرطان!

لتقول:

- كنتُ في منزلهم اليوم وقد أخبرتني والدتها أن أخبرك عن هذا ولك حق الاستمرار في الخطبة أو فسخها.

سعمت أمجد وهو يخبرها بأنه لا يودّ الفسخ لهذا السبب وبعدها غادرتُ متعجلاً، كوكب الأرض ما عاد قادراً وقتها على حملي بين طيّاته، وبعدها عدتُ إلى هنا حيث قرّرت تغيير تخصصي وأن أدرس الطب علّي أكون أملاً لها، الكثير من الصعوبات واجهتنا من قِبل عائلتها وعائلتي حينما تقدمتُ لها ولكنني تمسّكت بكل ما أوتيت من قوة حتى تزوجنا، وحينما دخلتُ يوم العقد لرؤيتها لأول مرة منذ أعوامٍ كانت تضع حجاباً تداري به صلعها إثر الكيماوي، اقتربت منها وأسقطت الحجاب عنها وأنا أؤكد لها بأنها تبدو جميلة بدونه، لقائي بها بعد كل تلك الأحداث والأحزان والليالي المُبكية كان رائعاً، لقاء حطّم كل سلاسل الاشتياق واليأس التي كنا قد قُيدنا بها، عاملتُ لها بعد ذلك لأجل العلاج هنا وجاءت برفقتي، بعد وقت ليس بالطويل اكتشفت بأنها قد قطعت حبوب منع الحمل التي كنتُ قد أجبرتها على أخذها لأن صحّتها لم تكن لتحتمل حملاً، ولكن عنادها تسبّب بزرع بذرة ابنتنا في رحمها وآثرت الحفاظ عليها وإيقاف العلاج الكيماوي، عملت جاهدة على إخفاء تعبها عني حتى جاء يوم ولادتها وجسدها قد أصبح ضعيفاً للغاية، تمّت العملية ولكنها كانت بحالة غير مستقرة، حينما زال أثر المخدّر بقيت تطلبني.. أنا الذي كنتُ قد غادرتُ الغرفة لشدة خوفي..

خرجت الطبيبة وطلبت مني الدخول مجدداً، ولجت إلى الغرفة ولم أكن

قوياً كفاية لمراقبة ضعفها..

مسحتُ على وجهها وقلت والدموع تغسل خدي:

- حبيبتي لقد تجاوزتِ الأمر!

ابتسمت وهي تتحدث بثقل شديد ونفس متقطع:

- لا تفزع، حسناً، ولكني سأموت يا سالم.. أشعر بهذا!

زادت دموعي:

- أنت بخير لا تقولي هذا!

لترفع يدها وتلمس خدي لمرة أخيرة وهي تقول:

- أشعر بنار في جسدي تشتعل وتقتلني!

صرختُ فيها:

- أنت وعدتني بأن تبقي!

كانت تمسح دموعي وهي تهمس:

- توقف عن البكاء سأكون معك.. روحي ستبقى موجودة من حولك..

سقطت يدها بثقل أمام عيني لحظتها وتوقّف نظرها ساقطاً على وجهي..

بقيتُ أصرخ فيها، أخبرها بأنني أريدها جسداً وروحاً لا روحاً مُنفصلة عن الجسد وأطلب منها أن لا تتركني.. ملأ صراخي الغرفة وصوت نبضها المتوقف على الجهاز في الغرفة يربكني أكثر..

كل شيء كان يخبرني بأنها قد رحلت.. وبأن علي منح الأمر حيزاً من استيعابي..

ومنذ ذاك الوقت كرّست نفسي لابنتنا ولطبّ الأورام هذا، أكره فكرة غيابها الأبدي لذا وإن كان لك خيطُ أملٍ ضعيف في بقائك برفقة من تحبين

على الحياة فتمسّكي به، الفراق بسبب الموت سيء يا وعد!

ابتسمت بحزن:

- أدرك هذا ولكن البقاء قيد وصال مُعذب سيء أكثر.

- ألم يفقد أسامة ذاكرته الآن!

- ما الذي تعنيه؟

- كان سيئاً بسوء ماضيه أما وقد نسيَه الآن وبات دون تراكمات فإن الأمر سيكون أفضل.

ابتسمتُ بحزن:

- ليتني أُدرك ماضيه على الأقل، لربما أجد مبرراً لكل ما أصابني به عندها.

ابتسم بهدوء وهو يقول:

- ليتني مخولٌ لأروي قصة ليسَت ملكاً لي ولكني لا أخون أسراره وإن خانته الذاكرة.

هززتُ رأسي إيجاباً وغادرت المكتب بعدها..

إن أصعبَ ما قد يُصيب امرأة هو أن تشقّ طريقاً باتجاه شخص لا ينظر حتى باتجاهها، أن تضع قلبها بين يديه، تحاول ممارسة أفضل ما لديها معه، تستنزف كل خيرها المتبقي لأجله، تقطع مسافة حزنها ناحيته، تشرق بنظرة عينيه وتغرب سعادتها حين يسود غيابه، تنهار أحلامها بمغادرته وتقوى لمجرد أن يُهدهد صوته تعبها، تسرح في تفاصيله، لا تألف حزنه لمجرد تكراره وتنظر إليه بعين سخط أن سكنه عوضاً عنها، تبكي لمجرد أن ينام وهي عاجزة عن التّخفيف عن شيء حلّ به، تذكره في دعائها كثيراً، تلح على "الله" أن يمنحه كل ما عجزت هي على جعله يعبر إليه، تسهر لياليها برفقته مُشبعَة بالغفران تجاه أخطائه..

وفي نهاية المُطاف يبدو عاجزاً هو عن أن يكون ردة فعلٍ تجاه شيء واحد قدّمته له، يعجز عن أن يخيط جرحها ويستمر بسعيه في طريق آثامه نحوها متعبداً..

فتكون النهاية كل النهاية أن يخذلها للمرة الألف ودون أن يشعر حتى أنه قد فعل هذا بها..

وإنه ليُخيفني أن أستمر ببقائي برفقته حتى إذا ما فاقت ذاكرته من غفوتها حثّته على خذلاني مجدداً.

***

على الرغم من أن جدار قلبي قد كسره إلا أنني الآن أراقبه باشتياق رغماً عني وهو جالسٌ في فناء الجامعة بانتظار خروجي..

يحطمُ سوء مزاجي بحضوره

أراقبه بتمعُّن..

له عادة تحريك رأسه ناحية الأمام قليلاً قبل التفاته،

وحينما يضحك يشمخ رأسه للأعلى وتظهر أسنانه العلوية كآية جمال مكتملة..

يجلس بتلقائية مريحة

كثيرُ الحركة إلى حد ما

يحرك نظاراته كلما شعر بالحرج أو ابتسم مجاملاً أحدهم

و..

"هل تسمعينني! "

جاءني صوت إحدى مُشرفات الطابق من الخلف لألتفت بارتباك واضح،

فتردف متسائلةً:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

لا يستحضر عقلي أي إجابةٍ لذا كان علي التفريط بوجهه الضّاحك وراء النافذة ومغادرة المكان من فوري..

والحقّ أنني كنتُ سأتمكّن من سرد أية كذبة لتبرير شرودي وكسب تصديقها إياي..

لكن خالقاً أودعَ في وجهه ملامحاً لمجرّد النّظر إليها أغرق في النعيم ما كنت لأغضبه بارتكابي معصيةَ تشويه الحقائق..

كان الصمت وقتها أجزلُ من قولٍ قد أُعاقب بسببه فأُحرم منه..

لذا كان عليّ استخدام ابتسامته المنعكسة على وجهي كإجابة غامضة..

ثم أتركها خلفي

بعد وضعه هو بداخلي..

اقتربت نحوه فابتسم ثم قال أثناء خروجنا:

- ذهبت إلى المكتبة ووجدتُ هذا..

أخرج رواية " Evil makes peace " من حقيبته ثم قال متسائلاً:

- هل كنتُ كاتباً متمرساً إلى هذا الحد!

ضحكتُ ودموعي تغادر عيني وبعدها قلت:

- ربما..

صمت لثوانٍ وعلامات التعجب تتسلّق ملامحه ثم أردفتُ قائلة:

- اسبقني إلى البيت، تذكرت أمراً عليّ فعله.

والحق أنني فقط أردتُ الابتعاد عنه وعن ذكرى كان قد جرّها نحوي..

استمر بالتحديق في وجهي حتى قلت:

- حسناً، نسيت أنك لا تتذكّر الشوارع، سأوصلك إذاً وبعدها سأذهب.

صعدنا إلى سيارته العصي عليه تذكر كيفية قيادتها كذلك، والتي قد شرعتُ بقيادتها عوضاً عنه، طوال الطريق لم أنبس ببنت شفة، بقي صوت Bryan Adams يتصاعد مشاركا إياي شعوري وحسب

So if you're feeling lonely—don't

You're the only one I ever want

I only wanna make it good..

فور وصولنا ودّعته وهو لا يزال يراقب عيني بحنيّة مُفرطة، ولكن قسوته العالقة في دماغي كانت أكبر من ذلك، لذا تجاهلته ومضيت مجدداً..

جلستُ في أحد المقاهي لتصلني رسالة من سالم الذي طلبت حضوره "سأصل بعد دقائق"..

وحالما وصل وجلس أمامي رفعتُ رأسي بعينين باكيتين لأول مرة أمامه:

- هو لا يتذكّر أي خذلان حذَفه كطوبٍ على قلبي، كل هذا يؤذيني يا سالم..

- وعد، خذي نفساً عميقاً وقولي لي ما الأمر!

- أخذته معي إلى الجامعة لأنه قد شعر بالضيق وهو يتنقّل بين الغرفة والمشفى..

قال يحثّني على الاستمرار بالحديث:

- وبعد!

- زار المكتبة المجاورة للجامعة واشترى كتابه الكاذب وجاء يسألني عمّا إذا

كان كاتباً متمرّساً إلى ذلك الحد.. لقد نسي ما أصابني به يا سالم.. يفتخر بإنجازه الكاذب وأنا أبتسم لخذلانه ذاك خشية أن تجرحه الحقيقة..

- مهلاً أنا لم أفهم، ما شأن كتابه بخذلانه إياك!

يميل جانب فمي:

- لأني أنا من كتبتُه، عرضته عليه، قلتُ له بأني سأقوم بنشره فعارضني وخضعت لمعارضته في النّهاية دونما أسباب واضحة سوى أنه كان يجيد السيطرة عليّ، وحينما انفصلت عنه ورفضت العودة كان هذا انتقامه، نشره باسمه عبر دار نشر رحبوا بوجود موهبة فذّة كتلك وأنا التي قضيت أعواماً في تنميتها ما طالني سوى دخان احتراقها..

لك أن تتخيّل مدى ألمي وقتها..

خان قلبي وحلمي وثقتي كما خان سعادتي

هكذا تباعاً دون أدنى شعور بالذنب تجاهي..

حاولت النهوض مجدداً وكتبتُ آخر ولكن تمّ اتهامي بتقليد أسلوبه، كنتُ أُنتقد لتقليدي أسلوبي، أسلوبي أنا الذي ليس لي مقدرة على تغييره، نجح هو وبقيتُ مكاني لستُ أدري أين أخطأت بالتحديد..

هل بقدومي إلى هنا، أم بقبولي به وتجاهلي كل العلامات التي كانت تحثني على الهرب.. أشعرُ بأنني مُستنزفَة جداً يا سالم إلى الحد الذي ما عاد بإمكاني الوقوف إلى جانبه حتى.. ولكني لستُ أتمكّن من تركه وسط حرب السرطان لوحده، تبقّت جلسة واحدة له في الشهر القادم وبعدها سأغادره..

طلبتَ مني أن أتمسّك ولكني لا أتمسك بقميص قد خُلع عن الجسد، وجودي في عالمه مجرّد كذبة أصدقها أنا وستكذبها ذاكرته ولو بعد حين،

وأرجوك أن لا تحاول إيقافي وقتها كعادتك، قد احترقت ولست بعنقاء لأُخلق من جديد.

كنتُ أراقب ملامح الصدمة على وجه سالم لحظتها وطيف شفَقة عابرٍ كذلك، هز رأسه موافقاً على ما أخبرته به وبعدها غادرت من فوري بعينين لفرط احمرارهما يخالهما المارة قطعتان من الجحيم..

من السيء أن يسجّل المرء حرّيته على جناح طيرٍ يهبط به بعدها لقاع بئر فجأة..

أنا أعترف بأني كنتُ أشعر بالنقص وأردت إكماله بوجوده، لم أكن أشعر بوجودي بهذه الحياة، لا أعرف من أنا وتائهة بين صواب ما أقدمتُ عليه وخطئه، اعتمدت على وجوده لإثبات وجودي وهذا كان جرحي الذي غرس فيه سمّه بعد أن كشفت له عنه.

الفصل التاسع

ماري الشّقراء لم تكفّ عن ملاحقته قطّ..

لُمت فيه تجاهله لها حينما وجدت فيها خوفاً كالذي كان يسكنني من الوحدة، لذا حثَثته على الاقتراب منها وليتني ما فعلت..

كنتُ سعيدة أن كنت سبباً باجتماع أخوين مجدداً، كما أفرح برؤيتهما معاً ولكن..

"ماري ديفيد"

لم تكن سوى عشيقة سابقة له، علمتُ بهذا من ريهام التي وجدته واقفاً برفقتها يومها..

وقتها أدركت سبب افتعاله للغضب كلما فتحت معه موضوعها قبلاً..

غادرتُ الجامعة لحظتها وقررت بأني لن أعود إلى غرفتنا، أردت أن أعاقبه بما ليس ليشعر به، نمت لدى ريهام وعهد رافضة التحدث حيال الموضوع، رفضت إخبارهما عن خياناته السابقة فيكفي أنهما يعلمان بأمر التي تطاولت حتى باتت تُرتكب أمام عيني دونما شعور بوخز في ضميره حتى..

تعرضتُ لصدمة قوية بعد خيانته هذه لي على الرغم من أنها لم تكن الأولى ولكنها كانت أشدهن حدة، وإثر الصّدمة تحطّمت الصورة في عقلي فباتت ناقصة..

أتذكر يومها أنني نمت بعد تهويدات ريهام الهادئة دونما سقوط لدمعة واحدة من عيني..

هبطت على سريرها بسواد متحجّر داخل عيني ليرسو خدي على الوسادة بهدوء..

وسرعان ما غرقت في النوم محاولة الهرب من فكرة أنه قد تجاوز حد أخلاقه وأصبح "خائنا.."

صحوت في اليوم التالي بذاكرتي المليئة بالفراغات

أمسكت بهاتفي وقلبي يحثني على تقبيل صباحه برسالة مني كما اعتاد..

ولكن كل شيء كان قد اختفى..

الحقيقة أني كنتُ قد حذفت كل التفاصيل إثر سخط البارحة ولكنني لم أتذكر وقتها..

صورته من على الشاشة..

رسائلنا..

وتسجيلات صوته التي كنت ألجأ إليها كلما شعرت بالاشتياق إليه أثناء تواجده في عمله.. كلها اختفت

لذا أرسلت له مرتعدة:

"كل شيء قد اختفى، ولا توجد رسائل منك منذ البارحة، كما أنني لا أتذكر سبب تواجدي لدى ريهام عوضاً عن غرفتنا، كل شيء غريب يدفعني للجنون، هل أنت بخير؟".

لم يأتني رده..

لذا غادرت المنزل متعجلة لرؤيته في الشركة. كان يبدو بصحة جيدة، يضحك مع زملائه بشكل عادي وحينما وجدني متوسطة المكان لم يحرك ساكناً..

كبرت رقعة خيبتي منه ليوقف امتدادها صوت عهد التي لحقت بي وهي تسألني عن حالي، راقبتها لوهلة وبعدها أعدت النظر إليه.. لتهمس مجدداً:

- ستتجاوزينه مُسرعة لا تفزعي.

ولكن..

عن أي تجاوز تتحدّث!

صدمتُ مجدداً..

كنتُ أفكر بأننا لم ننفصل، وأنّا على ما يرام، فما الذي تهذي به هذه!

راقبت الرسائل على شاشة هاتفي وكلامها يصنع صدىً مزعج بداخل رأسي لذا غادرت من فوري..

"فقدان أجزاء من الذاكرة إثر الصدمة"

هكذا قال طبيبي النفسي الذي بدأت بزيارته منذ ابتدأت قسوته.. والمقصود بالصدمة خيانته، خيانته لمن أحبته، لم يكتفِ بتمزيق قلبي فمزّق ذاكرتي كذلك..

كنتُ ليلتها قد أرسلت له الكثير من الرسائل إثر احتراقي وبعدها قررت مسحه هو وكل الأمور التي تخصّه للأبد ولكن فقدان ذاكرتي اللعينة المؤقت ذاك وضعني في موقف مزرٍ

جعلني أتحدث فيه مع من خانني

"هو"

فكرهته وقتها

حقاً كرهته جداً

وعلى الرغم من أنني سامحته بعدها حينما بدأ يدفع بي لجهنم جلد الذات

مجدداً لأنني من قربتها منه حسب قوله، وتمكّن من السّيطرة علي وإقناعي بهذا الأمر إلا أنني وحتى الآن لا أزال أحمل حزناً عظيماً بسبب هذا.

الفصل العاشر

أتذكّر رسالته الوحيدة التي كتبها بعد انفصالنا الأخير، كنتُ يومها لا أزال جالسة على السرير معزية ما حدث حينما وصلني إيميل منه محتواه:

"لا زلت أؤمن بكل ما كنت تُسمّينه فلسفة دونما جدوى، كقولي مثلاً بأننا كنا كائنات ذوات أجنحة يوما ولكن أجنحتنا قد تلاشت نظراً لعدم توافق جزيئاتها مع حرارة كوكب الأرض...

أتذكر عندما أخبرتك بهذا يومها قلت تسأليني مباشرة:

- وهل كان لنا وجود في كوكب آخر من قبل، أقصد كوكباً يتوافق مع جزيئات تلك الأجنحة المرسومة في عقلك؟

- وهل من المعقول أن عالماً فيه ملايين المجرات لا تكون فيه حياة إلا على كوكب واحد يسمى بالأرض، لربما كنا في كوكب آخر في الماضي.

- وكيف انتقلنا إلى هنا وما الأسباب!

- لا أدري ولكني مؤمن بأننا قد فعلنا.

- حسنا وإن كانت أجنحتنا لا تتوافق مع الحرارة فلم لا تعود في أيام الشتاء؟

قلتِها ومن ثم انفجرت ضاحكة في وجهي..

ابتسمت بهدوء لأسئلتك التي تبدو عقلانية إلى حد ما، ولكني كنت أجد المُتعة في جنوني وما كنت مستعداً للتخلّي عما أؤمن به فأفقد متعتي..

أتعلمين!

لا ضير في إيمان كاذب مُقترن بالمتعة أحيانا..

كإيماني اللحظة بأنكِ ما رحلت وبأنك لا تزالين موجودةً بجانبي، أنا مدركٌ تماماً بأنه إيمان كاذب ولكني أجد متعة وسعادة في تفاصيله..

أفهمتِ الآن سبب اختراعي لتلك الخرافات من قبل وتمسّكي بها."!...

يكتب على نحو حزين وكأنما كنتُ السبب في فراقنا..

ولكن مهلاً أوليس يتذكر بأنني من جعلته يبتسم كذلك، فأين أفعاله التي ارتكب صحتها في حقي!

مقابل رسالته تلك جاءتني ذكرى أخرى مشابهة..

قلتُ له في تلك الذكرى بأنني مُتعبة وسأذهب إلى المشفى الذي ما أخبرني بأنه قد يرافقني إليه.. عزيت الأمر لانشغاله وذهبت بمفردي، وحينما عاد ولم يجدني بالبيت لم يفكر حتى بالاتصال والسؤال عني، فقط حينما انتهى المصل الموصول بيدي وعدتُ إلى المنزل كان يجلس أمام التلفاز يشاهد مباراة كرة قدم، جلستُ إلى جانبه على الصوفية بتعب، ليلتفت نحوي لثوانٍ قائلاً:

- عدتِ!

أقسم بأنني لحظتها وحسب شعرت بالخوف يتملكّني وهو متنصّل من حنيّته، هززت رأسي إيجاباً وابتسامة باهتة تعبر وجهي ثم سألته :

- متى عدت؟

- منذ قرابة النصف ساعة.

- غريبة... ألم تلحَظ غيابي؟

رفع صوت التلفاز وهو يقول:

- سنتحدّث لاحقاً، لا أود تفويت المباراة الآن.

نهضت من على مكاني بتعب مضاعف وصعدت للأعلى، وإثر خيبتي تلك نمت من فوري..

لم يسأل عن صحّتي في اليوم التالي ولا في اليوم الذي يليه على الرغم من ملامحي الفائض تعبها..

في رسالته كنتُ ألقي الأسئلة عليه فيضحك وفيما سردتُهُ أنا كنتُ ألقي الأسئلة عليه فيضجر، في الحالتين كنتُ الفعل وكان ردة الفعل..

أسعدته في الأولى وآلمني وفي الثانية..

حزنه في تذكّر أمور جيدة لا يضاهي حزني في تذكر أمور تستدعي جميع بوادر الألم..

فجوة عميقة بين ما يشعر به هو وما أشعر به أنا.. فجوة عميقة تجاهل ردمها سابقاً وما عاد بإمكاني سوى الإيقاع به بداخلها بعد تحسُنه.

الفصل الحادي عشر

إنها لمُجازفة عظيمة أن استنزفت ثبات خطواتي الأولى باتجاه رجل لا يقدر، مثله، فعلى الرغم من اتّساع المكان من حولي إلا أنه لطالما ظهر ضيقاً في عين قلبي الذي اختاره غير محتمل سوى بضع خطوات في سبيله، ولطالما لوّحت بيدي مُحاولة لفت انتباهه ولكن نظراته الباردة كانت تُصوَبُ نحوها كسَهم يدفعني لإنزالها..

وعلى الرغم من هذا بقيت أقترب..

وإنه كان من المفترض أن أخشى لقاء مصرعي في النهاية، إلا أنني ما خشيت الموت على يده منذ كنت أحمل قلباً بداخلي، فكيف هو الأمر وقتها وقد أصبحت أحبه بقلبين!

قلبي أنا..

وقلب طفلنا..

لم يُسرّ كثيراً بخبر حملي ذاك وقابله بمشاعر باردة جداً بل عبر من جانبه كأمر لا يستحق الوقوف لثوانٍ على أطلاله..

وكالعادة خلقتُ له المبررات من فوري وتقبّلت فعله إلى أن ساءت الأمور أكثر..

كنتُ أحاول دفع شياطين الغيرة عن رأسي حينما وصلني موقع بعد صور تخصّه وهو جالس برفقة إحدى الفتيات اللاتي حلف لي مراراً وتكراراً بأنه قد قطع علاقته معها منذ سنوات غابرة، كدت أكذّب عيني وأصدّق حديثه لولا

القميص الذي كان يرتديه، فهو نفسه ما ألبسته صباح ذاك اليوم قبل خروجه، انطلقت من فوري، كان موقع أحد الفنادق، صعدت إلى المطعم الخاص به حينما وجدتها تضع يدها على يده، وقفت مُبتسمة أمام صدمته من حضوري، وبعدها انسحبت بهدوء ليلحق بي وهو يقول:

- دعيني أفسر لك الأمر.

قلت بغضب ممتزج ببكائي:

- أي تفسير ستخترعه هذه المرة، هي من دعتك وأنت كريم حد ما تمكنت من رفض دعوتها أم ماذا!

قال منسحباً من الحديث:

- مهما قلتُ فلن تصدقينني.. يمكنك تصديق أفكارك إذاً.

ضحكت:

- كالعادة سينتهي المطاف بالحديث إلى كوني التي لا أتفهّمك ولا أعطيك مساحة لتبريراتك الساذجة.. الخيانة لا تُبرر يا أسامة.

- ليست خيانات سوى بداخل رأسك وإلا ما كنتِ تجاوزتها قبلاً.

التفت بغضب وأنا أصرخ فيه بعينين مغرورقتين:

- تجاوزتها سابقاً لأنني أحبك أيها الغبي، لا لأنني أصدّق مبرّراتك تلك.. ثم إني ما منعت عنك صداقاتك مع الفتيات قط، كل ما طالبتك به أن تجعلني واضحة في الصورة، أن تظهر لهن متزوجاً ولك عشيقتك واضعاً لهن خطوطاً حمراء لا يتم تجاوزها، ولكنك تستمر بإخفاء مقابلاتكم وأحاديثكم، لمَ!.. حسناً دعني أجيبك لأنكم تفوقون مستوى الصداقة والزمالة بدرجات.

ثم غادرت المكان من فوري، دخلت إلى غرفتنا أجمع أغراضي مقررة

رحيلي الأبدي عنه، وحينما وصل هو كنتُ قد أوشكت على الخروج حينما أوقفني سؤاله:

- من أكون في نظرك الآن؟

ضحكت دواخلي على هيئة نزيف:

- لا يهم هذا الأمر.

- بل يهمني، أرجوك أجيبي.

كنتُ لحظتها وسط ألمي العظيم منه وهو لا يزال قيد اكتراث لنظرتي له وحسب.. أعاد السؤال كثيراً وهو يمسك بيدي لذا صرخت به بغضب متفاقم:

- أتودّ أن تعرف حقاً؟

- قوليها.

يراقب عيني بنظرته التي لطالما أضعفتني لكنني آثرت الاحتفاظ بقوّتي تلك المرّة وقلت من بين أسناني:

- لستَ رجلاً يا أسامة، هكذا بت أراك.. مُتنصّلٌ من كل رجولتك.

وتركته خلفي مصدوماً من حديثي، فقد كان كمن ضمن مكانته التي لا تتغير رغم سوئه ولكنني تعبت حد إنزاله من مقامه الذي رسمته بداخلي إلى المقام الذي بقي مصراً على رسمه هو بحد ذاته..

بضع خطوات خطوتها خارج البناية بعدما وضعت الأغراض لدى ريهام ليلحقني بحمية قائلاً:

- كيف تجرُئين على قول هذا!

خدشت كرامته التي عمل جاهداً على حمايتها من تأثير أفعاله السيئة، لذا صفعني لحظتها حد سقوطي على الأرض قبالة سيارة قادمة..

سواد قطع تلك اللحظات وما عاد وعيي سوى وأنا على سرير في المستشفى، خيبته تسكنني عوضاً عن طفلنا وهو إلى جانبي خالٍ من تعابير الحزن أو التّعاطف، متجمد كروبوت لا يشبه الذي اخترته، خوفه سابقاً من حزن يعبر خاطري لا يعبر جثة صغيرنا حتى..

لقد خسرني بعد أن قرّر تركي متشظيّة يومها.

***

حينما خرجت من المشفى عدت إلى الغرفة برفقة ريهام مجدداً، استقبلتني وهي تراقب الموت المحاوط عيني بسواده، وتساءلت عن الرضوض المنتشرة في جسدي.. ولم أقل سوى:

- أشعر بالبرد.

وضعت يدها على جبيني وهي تقول:

- حرارتك ليست مرتفعة، ما بك؟!

كررت الجملة لتجلسني على السرير وتحاوطني باللّحاف الذي ما عدل من الأمر شيئاً فالبرودة كانت إثر عاصفة الخذلان الساكنة إياي وحسب..

عدت بالذاكرة للوراء كثيراً..

تساءلت لو كان والدي أمسك بي ومنع عني السفر فأي حال كنت سأكون عليها في القرية!

استمر سوء حالتي النفسية بالتفاقم حينها عرضتني ريهام على طبيب نفسي آخر يكون صديقاً لوالدها علّ حالتي النفسية تتحسن..

كان أسامة أول ما حكيته له، عبرتُ مسافة الأهل والهرب والتحرّش وكل سوء خضته قبلاً وسردته هو عليه، أخبرني بأن قرار انفصالي عنه كان

صائباً وبأن علي الخروج من سيطرته، فحسب ما وصفته له ما وجده سوى شخصية نرجسيّة..

وارتباطي بشخص نرجسي يعني أنني خضت أسوأ أنواع العلاقات وأكثرها تعذيباً..

تلك العلاقات التي تدفع بالضحيّة نحو جلادها، جلادها الذي يبدو في بادئ الأمر مكتملاً، يستدرجها.. يقنعها بأنه الأنسب لها.. السند الأوحد.. الحنية المُطلقة.. وغير ذلك الكثير وتلك المرحلة ما تسمى بمرحلة " love-bombing " ليحقّق ميلها التام ناحيته بضمان عدم مقدرتها عن التخلي عنه وبعد ذلك يصنع مسافة بينه وبينها، يستمتع بتعذيبها كذلك، يسعده ترجّيها إياه للعودة وبأنها ليست تتمكن من الاستمرار بدونه.. يرتاح لبذلها الجهد لإعطائه ما يحرمها إياه، يتغذى بضعفها وكلماتها المرصوفة بحنية بالغة لأجله، يبتسم لوصفها إياه بأنه كل احتياجاتها ورغباتها.. يتلاعب بمشاعرها ليظهرها بالخطأ في كل مرة، يتجاهل مشاعرها كافة، لا يهمه سوى أن يكون محطّ إعجابها والقطعة الثمينة التي وإن لم تستطع الوصول إليها ستبذل كل الجهود لاقتنائها، يشعر بأحقيّته بكل شي، رغبته الدائمة في إبقاء شريكه في مرحلة أقل منه، أضعف بالشخصية، أقل بالنجاح، غير متلقٍّ للمدح من الآخرين لدرجة أكثر منه والأسوأ من هذا محاولات انفصاله التي لا تنتهي

كل هذا حدث معنا..

وكان أسامة محكم السيطرة حقاً..

أغفر له في كل مرة

أصدق حماقة تبريراته

أتجاهل خياناته

أتجنب إغضابه

وأعود بعد كل مجزرة مرتكبة في حقي..

كان ذكياً حد مقدرته على السيطرة عليّ وكنت غبية حد استمراري في البقاء تحت كنف سيطرته تلك دونما محاولة مني لإنقاذي..

لم أشعر حقاً بمدى دناءة تصرفاته معي حتى شرح الطبيب تقنياته المستخدمة ضدي..

ولكن على الرغم من هذا حينما طلبتُ الطلاق تلك المرة ورفض فعل هذا الأمر لم أتوجه للمحكمة من فوري بل بقيت في مكاني وكأنما كنتُ أنتظره بغباء مجدداً..

كان من الصعب علي الخروج من تحت كنف سيطرته تلك، وعذبني هذا الأمر لسنوات فاقت تلك التي عشتها برفقته.

الفصل الثاني عشر

انتهت جلسته الأخيرة ويبدو بصحّة أفضل، مر شهر من وقتها وأنا لا زلت أمكث برفقته حتى أضمن تحسّنه كلياً.

يومها كنتُ أجلس على الطاولة أمام نافذة الغرفة كعادتي وهو جالس على الأريكة يراقبني بصمت..

التفت إليه وقلت:

- ما الأمر؟

ضحك:

- لِمَ تجلسين على الطّاولة لا على الكرسي؟

أعدت شعري المقصوص إلى الخلف:

- أواجه صعوبة في مُواكبة الأشياء التي يعتادها البشر كقوانين عيش عادية.

طُرق الباب لحظتها وكاد ينهض إلا أنني قفزت لأوقفه ومضيت أنا باتّجاهه، فتحت الباب وإذا ببعض رجال الأمن على الباب، راقبتهم باستغراب ليبدأ أحدهم الحديث:

- معذرة سيدتي، ولكن أليست هذه هي شَقّة المدعو أسامة الأحمد؟

هززت رأسي إيجاباً وأنا أشير للداخل وأقول:

- سأستدعيه...

حينما التفت وجدته واقفاً خلفي وهو يقول للشّرطة:

- أود التحدّث معها لدقيقة قبل المجيء معكم.

لم يعارضوا وتراجعت خطواتهم ليمنحونا بعضاً من الخصوصية، تقدم نحوي أسامة وأمسك بيدي، فتساءلت باستغراب:

- أسامة ما الأمر، ما الذي يحدث؟

نظر نحوي وهو لا يزال ممسكاً بيدي ثم قال:

- لستُ أدري أي أسباب كنتُ أحملها في الماضي حتى دفعتني لجرح طُهرٍ كأنتِ، ولكن جلّ ما أعرفه الآن أنني ظالم يستحق العقاب وأنك مظلومة آن لها أن تنتصر.

تسمّرت أفكاري في جدار عقلي ولم أفهم شيئاً:

- ما الذي ترمي إليه؟

- حدثني سالم عن سرقتي الأدبية لك، لذا هم هنا، سالم قد قدم إفادتي.

مال فمي حزناً وامتلئت عيني بالدموع:

- لا تزال ساذجاً كما عهدتك، أنت فاقد ذاكرتك أيها الغبي أفلا تفكر بأننا لربما نكون مخادعين وأنك صاحب الكتاب حقاً!

رفع يدي وقبلها مبتسماً:

- يدك هذه قطعة جنّة قد خفّفت عني جحيم مرضي وأني لمؤمن إيماناً كاملاً بأنها نفسها من خطّت عظَمةً كتلك التي في الكتاب.

صمتُ ليردف قائلاً:

- ذاكرتي تلعن حاضري بنسيانها للماضي الذي آذيتك فيه والذي لست أتمكن من إصلاحه، وهذا هو الأمر الأوحد الذي تمكنت من فعله لأجلك فاقبليه.

أفلت يدي مبتسماً وبعدها انسحب بخطواته وهو معلّق عينيه في عيني وتركني وسط دوامة أفكار معذبة.

طلبني القسم بعد ساعة في ذلك اليوم وقدمت شكواي ضده وطالبت بتعويض للأذى النفسي الذي أصابني به بفعلته تلك وسرعان ما أصبحت حديث السوشل ميديا بعد التّصريح الذي كان قد قام به في مواقعه قبيل أخذه بنصف ساعة..

الكثير من الرسائل وصلتني من الناس، جزء منهم داعمين وآخرين يشتمون خداعه..

عادت لي ملكية الكتاب وأبطلت كل النسخ الحاملة اسمه وبيع قرابة الألف نسخة حاملة لاسمي خلال يوم واحد بعد ذلك في نيويورك التي أظهرت دعمها الكامل لي..

شعرتُ بنشوة نصرٍ وهو ينتظر محاكمته على جرمه في حقي، بينما يبدو سالم قلقاً حياله ومُنصدماً بالوقت نفسه من رغبتي بمواصلة هذا الأمر..

بالمحاكمة سيذكرون الأذى النفسي الذي تعرضت له إثر ما حدث ولكني سأتذكر كل تفاصيل الأيام التي قضيتها معه..

خداعه لي..

كذبه عليّ..

بروده الذي لطالما أحرقني..

خياناته التي أهدرني في سبيل تبريرها..

تهرّبه من مسؤولية قلب كان قد قطع عهداً مكتملاً بأنه سيحميه..

وعدم اكتراثه لأوجاعي..

هم سيحاكمونه على أمر واحد ولكني سأعتبرها محاكمة على كل السنوات التي أضعتها برفقته.

طُرق باب الشقة وقت كنتُ أفكر بهذا لأنهض وأفتح الباب، كان طفل في الخامسة تقريباً يراقبني بعينين زرقاوين تمتلئ بالدموع وهو يسأل:

- أين أبي؟

راقبتُه للحظات ثم دنوت حتى أصبحت بطولِه وسألته:

- هل أضعت منزلكم يا صغيري؟

هز رأسه نفياً وقدم لي ورقة لالتقطها وأجد المكتوب على الظرف "ماري ديفيد"..

إذاً!

هذا يكون ابن..

على رسلك لحظة..

ارتجفَت دواخلي ثم رفعت رأسي ببطء وابتلعت ريقي بصعوبة:

- ما اسمك؟

لتأتي الإجابة:

- روبن أسامة.

صُعقت بالفعل ولم أدرِ كيف أتصرّف، تحرّكتُ وأغلقت الباب تاركة إياه خلفه ولكن تصاعد بكاءه دفعني للفتح مجدداً واستقباله لدي، حاولت تهدئة نوبة بكائه وبقيت برفقته حتى استسلم إلى النوم فوق الأريكة، وزّعت أنظاري

في الصالون أبحث عن الظرف وأفتحه متعجّلة وأبدأ بالقراءة:

"لم أتمكّن من العناية به، أسامة إن أنت تقرأ هذا فهو خطؤك وعليك احتمال نتائجة، أنا مغادرة أمريكا بأكملها للبدء من جديد، إن أردت فاستقبله بعد أن يوصله إليك كيڤن وإن لم ترغب به فسلّمه للدولة".

أي نوع من الأمهات هي..

قد فارقتني روحي إثر فقدان صغيري الذي ما كان قد اكتمل تكوينه حتى وهي تكفر بنعمة مكتملة!

لا زلت أتذكر حينما كانت الآلام تعتصر أسفل بطني بعد فقدان صغيري بمدة وأنا أجاهد للوصول إلى المشفى الذي كرهت وصولي إليه بعد ذلك..

-"سيتم استئصال رحمك"..

هذا ما قيل لي..

لفظت آخر أنفاس سعادتي لدى سماعي لهذا الخبر من الطبيبة يومها، وقدميّ اللتان كانتا قبل فترة على مقربة من المشي برفقة طفل لها يوماً شُلّت تماما..

وجدتني أَصلُب أملي المتبقي على مرأى الجميع متعجلة، وما من شيء أثقل من هذا قد حطّ على قلبي..

طفلي الذي لطالما تدلت أفكاري حيال اسمه وطرق تربيته وعدد لغاته والمدرسة التي سألحقه بها وبكل ما هو خاصته "لن يأتي مجدداً"..

البذرة التي حشرها أسامة مرّة في رحمي قد اقتلعها من جذورها كلياً..

أنا وهو كان قد أصبح لنا طرقاً متفرقة بعد آخر خياناته ولكني لم أكن قد قطعتُ أملي بتغيره وعودته، ولكن الحبل هذا الذي كنتُ أمده صوب قلبه ليقربني منه بات وقتها على عنقي..

متُ حزناً على موت طفلنا الثاني قبل مجيء أسبابه وهذه قد تخلت!..

أشعر بألم يعتصر قلبي ومعدتي على حد سواء ولستُ أدري ما الذي يجب علي فعله.

***

من مذكرات "أسامة"

سُحبت شكواك ضدي في اليوم التالي، هذا ما قيل لي قبل خروجي من القسم، هرولت نحو غرفتنا ولكن الأمر أن سالم من كان ينتظرني هناك وحسب، يجلس خافضاً رأسه وحالما يسمع خطواتي مقتربة منه يرفع رأسه ناحيتي وهو يقول:

- هذا كل ما تركته لك.

أشار بمغلّفَين بين أصابعه وقدمهما لي وبعدها نهض مغادراً، تقدم خطوتين ثم قال قبل أن يلتفت:

- بالمناسبة، روبن نائم.

وغادر..

فتحت المغلّف الأول والذي كانت فيه رسالة ماري، رسالتها المليئة بأخطائي..

والآخر كان منكِ

"كان بإمكانكَ أن تنتصر بوضوحك على الأقل حينما لم يكن لك نصيب انتصارٍ في الرجولةِ يا أسامة..

وصدقني كان بإمكاني الاستيقاظ من حلم وضعتك يوماً بداخلهِ لأعايش

واقعاً يخلو منك، ما كان الأمر ذو استحقاق لكل هذه الطرق المتعرّجة التي عبرتها مبتعداً، كانَ بإمكانك القول بأنكَ قد استبدلتني بماضيك "ماري" لتقتل رجولتك وتحتفظ بصفة الصدق لديك على الأقل، عوضاً عن كذباتك المتتابعة التي أرْدَت صفاتك الحسنة كقتيلةٍ في نفس الساحة الساقطة فيها رجولتك، كان الأمر سيبدو رائعاً أن تحتفظ بشيء يرثه ابنك، المسكين.. كيف سيكونُ حاله وله أبٌ أعزلٌ من كل المعاني!

متنصلٌ من رجولته، قاتلٌ لأخلاقه، ومتخلٍ عن إنسانيته.. وتخيل معي لو أنني لا أدعو الله ليحيطَ سوءك بسترهِ ودعوتهُ مظلومةً أن يفضحك! ألم تكن دعوتي لتُستجاب.. فيسودُ وجهكَ على مرأى الجميع، وتغدو خطواتكَ واقعةً على جمرِ الخزي والعار!

صدقني الأمرُ لا يتعلق في كونكَ قد رحلت ألف مرة عني..

الأمر كل الأمر أنك قد كرّست رجولتك في تحويل فتاة هادئة مثلي إلى كتلة مسمومة بالغضب، هذا إن كنا سننعت ما بداخلك برجولة في المقام الأول..

أنا حقاً أعتذر!

فلستُ أتطلع لتحجيمك صدقني، ولكِني بت أنجل من منحي كلمة "رجولة" لشخص كأنت، يربكني استخدامها مقترنة بصورتك التي قد تشوّهت إلى أقصى حد.. ويؤسفني حقاً أنني لا زلت أطمع بتحريفها لأجلك، يؤسفني أنني أقابل استماتة رغبتك العتيقة بترك النّدوب عليّ باكتراث لزهوكَ الذي لن يقبل بغير كلمة رجولة لتصفه..

حسناً فلتكن.. كلمةٌ ظاهرها كذلك لهم وباطنها مفهوم لدينا.. وهذه المرة

دعني أقولُ لك

"أنْ تغدرَ بامرأةٍ أحبتك

يعني أن تغدرَ برجولتك

ويكفيني من الأمرِ أن يعذبكَ شعورُ النقصِ هذا للأبد"..

ربما تتلمّسُ مجد انتصارك بحذر اللحظة وأنت تشعر بالبطولة لسحقك إياي كما هي عادتك.. أو ربما أنك لا تفعل.. ولكن الأمر الذي أنا متأكدة منه هو أن سقف انتصارك سينهد فوق رأسك يوما..

أعوام خمسة قضيتها برفقتك وها أنا أخيراً قد قررت منحي مساحة كاملة بعيداً عن سمّك..

أسامة..

"أيا فكرة خطرت على بال عُمري لوقتٍ طويل، عدمُ واقعيتك أمرٌ يجبرني على إلغائك"..

إنها النهاية."

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا واقف فوق ألغام كلماتك خشية انفجار قلبي إثرها، لا أدري كم من الوقت مضى أو متى ابتدأ بكاء روبن الذي استيقظ، كيف لي أن أستمر يا وعد وأنا أب متنصّل عن كل شيء حتى ماضيه، لا يفقه أية أخطاء قد ارتكب حتى لتتملّكك القسوة نحوه بهذا الشكل..

حاولت الاتصال بك كثيراً ولكنك لم تجيبي، وآلاف الإيميلات التي أرسلتها لك بشكل يومي دونما تلقي رد، كما أنك قد غادرت غرفتك المشتركة مع الفتيات إلى أجل غير مسمى، مرت الأشهر ببطء شديد دونما وصْل منك أنت

الذي اعتدت على وجودك طيلة فترة علاجي، وفي ديسمبر نهضت بذاكرة مكتملة، ثقل ذنوبي بحقك قتلني، كتبت لك إيميلاً آخر بأصابع دامية ليلتها لتجيبيني برسالة قاسية أكثر..

كفرتِ بي ليتملّكني اليأس كاملاً، ولا شيء غير اليأس قد يقتل رجلاً عاش ممتلئاً بأمل أنه الأمر الذي يستحيل التّخلي عنه في كل الأحوال.

الفصل الثالث عشر

وعد

قبل أيام تجرأت على فتح المصحفِ مجدداً، كنتُ أبكي بشدة وقتها وأتألّم على نحوٍ بَشِع جداً..

{فإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً • إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً}

كانت الآية الأولى التي وقعت عيني عليها، زاد بكائي، شعرت بالآيات قد كُتبت بشكل مخصوص لأجلي وشعرت بيد خفية لله وهي تحاول الطَبطَبة علي وتخفّف عني..

ولأول يوم بعد سنينٍ خمس وجدتني أحدّد اتجاه القبلة بعد أن توضأت..

أنطق الشهادتين وبعدها أصلّي، صليت كما لم أصلي من قبل، سألته الغفران والطريق الذي إن سلكته لن أهلك..

اعترفت بخطئي تجاهه وبكيت مطالبة بقبوله توبتي..

يومها عدتُ أقرأ عما أعطانا إيّاه الله كنساء من مساواة بالرجال وحقوق مكتملة، قرأت كل تفاسير الآيات التي تخصّنا، وقرأت عن تعامل النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع النساء، تيّقنت بشكل كامل أن الخلل كل الخلل هو المجتمع وحسب لا الدين الذي شككتُ به..

رجال يظلمون

ونساءٌ يحتملن ظلمهن..

كما وأن غالب شكوك الرجال في النساء إنما هي أخطائهم..

كشكوك أسامة المتكررة بي بعد زواجنا على الرغم من أنه كان الخائن ومن قد غدر.. وأقول هذا كلما تذكرت سليم صاحب البقالة في القرية والذي لطالما تحرّش لفظياً وجسدياً إن سنحت الفرصة بكل امرأة مرت جواره، ولأنه سيء في ذاته لطالما اتّهم زوجته "فداء" بالسوء، فكان يغلق عليها باب غرفتها لساعات طوال مانعاً عنها الحمام حتى، واضعاً هاتفه قيد تصوير في المنزل أحياناً، وقاذفاً إياها بأبشع الصفات وهي المعروفة بعفّتها من قبل زواجها منه..

ولكن أتعلم ما الأبشع من فعله!

أنها كانت قد تعلمت الصبر من والدتها.. كما فعلتُ أنا.. أليس يُقال للمرأة دائماً بأن تصبر حينما يقصّر الزوج في حقّها ويؤذيها على أمل أنه سيتغير!

ولكن إن كان التقصير منها، قيل فيها كل شيء وطالبه الجميع بتركها..

في غالب مجتمعاتنا العربية لطالما تمّ معاملة الفتاة على أنها أمر نجس كذلك، أتذكر بأن جارنا صابر حينما رُزق بابنته الأولى قال بالحرف الواحد "مسمار غُرس بوسط رأسي" كما رفض رؤية وجهها لسنة كاملة.. ذكوريّتهم تقلّل من شأن النساء لغشاء بكارة ينقضّون هم عليه بالأساس، لتصبح المفعول بها "عار" والفاعل "مجرد رجل أخطأ والله غفور رحيم"..

تربية الأولاد على أنهم ملائكة منزّهين عن الخطأ بداية الكارثة تلك، فطريقة تربيتهم هذه كفيلة بجعلهم يستضعفون النساء لأن لهم كل الحق في استصغار ما سواهم.. فلسفة باطلة، ونحن اللاتي خُلقنا من ضلعهم كإثبات بأن لنا وعلينا مثلهم وبأنهم ليسوا وحدهم الأقوياء في الساحة..

كرهت الرجال كلهم وأسامة كان قد أتم علي كرهي هذا، لذا فكرت بالعودة لليمن محملة بكراهيةٍ ضِعف التي غادرت بها ولكنني كنتُ مجبرة على

التفكير بهذا لأهرب منه وأمنح نفسي أملاً ضيئلاً بأن سنواتي الخمس والنصف قد غيرت أفكارهم..

ما خشيتُ الموت على يدهم تحت بند غسل العار الذي تسبّبت لهم به إثر هربي حسب قولهم، فـ "حزن مدفون أهون من حزن منظور" كما كانت تكرر والدتي..

وأنا كتلة أحزان لَدفنُها أهون من إبقائها قيد حياة ناقصة.

الفصل الرابع عشر

- العديد من القراء اليوم لروايتك يتساءلون عن السبب الذي جعل وعد الرابع تجد بأن الشر يؤدي إلى السلام أو كما قلتِ يصنع السلام؟

وبعدها تبسمت لي المذيعة بينما بقيت أقلب لثوانٍ في ذاكرتي قبل أن أرد:

- في الحقيقة كان لي منظورين للعنوان آنذاك، الأول هو أني مررت باكتئاب حاد خلال فترة من حياتي، وحينما يمر المرء باكتئاب يخال الحياة شرّا مُطلقا وأن مهمّته الوحيدة هي تحقيق السلام الداخلي من خلال هذا الشر، والثاني شبيه بقول ثورو "من بين كل ألف ورقة شر نقتلعها توجد واحدة متميزة بالقرب من الجذر" أعني بأنني ركزت على فكرة أننا وإن أردنا الوصول إلى السلام فعلينا التركيز على نقطة ارتكاز الشر وإضعافها حتى يصبح من السهل القضاء عليها بعد ذلك.

كانت تراقبني بتركيز أثناء حديثي وبعدها سألتني سؤالاً كنت أطمح لإنهاء المقابلة قبله:

- أتظنين بأن الكتابة ساعدتك على التّخفيف من حدة الاكتئاب؟

ضحكت بحزن ظاهر وأنا أتحرّك بارتباك:

- ربما تكون قد أجّجتْه بداخلي أكثر.

انتهت المقابلة بعد بضع ساعة من إجابتي تلك لأعود إلى شقتي التي كنتُ قد استأجرتها مؤخراً، جلست على السرير وفتحت هاتفي أتصفح الإيميلات التي باتت تصلني من القراء بشكل متواصل بعد أن تحقّقت شهرتي من خلال روايتي

" Evil makes peace " وبيع قرابة ألف نسخة خلال يومٍ واحد، بقيت أقلبها كلها بضجر واضح حتى وصلت إلى إيميل واحد يتسبب بقلب حياتي رأساً على عقب بعد أن خلتُها قد بدأت بالاستقرار أخيراً..

إيميل يحمل اسم (صباح) أختي التي تصغرني بسبعة أعوام وبداخله خمس كلمات شلّت جميع حواسي:

"والدي يكابد الموت في المشفى"!

خمس كلمات جعلتني أفكر بكل فكرة ونقيضها..

جعلتني أفكر أكثر بعودتي لليمن ولكني في المقابل أردت بقائي في أمريكا بعد أن وجدت عملاً لي وبدأ نجاحي، فكرت بذهابي لرؤية والدي لمرة أخيرة ولكني في المقابل أردت رفضه بحاضره كما رفضني بماضيّ، فكرت بإجابتي على صباح وفي الوقت ذاته رغبت بتجاهل انتمائي إليهم ككل، فكرت بقدومي إليهم وقد أُعنّف من جديد وفكرت ببقائي الذي سيعنفني بسببه ضميري الرقيق هذا بشكل دائم..

فكرت بأنني ربما قد أُقتل كذلك وفكرت بأنهم قد يتقبلونني مجدداً فأحيا..

بقيت أفكر وأفكر وأفكر وفي نهاية المطاف وجدتني أجيب على الإيميل "سأكون بينكم بأسرع وقت ممكن، أرسلي لي عنوان المشفى ورقم الغرفة".

ودونما تجهيز لحاجياتي وجدتني في المطار بعد أن قمت بالحجز عبر الإنترنت..

كنتُ جالسة هناك أثير حولي بعض الشكوك، فأي مسافرة هي هذه التي لا تمتلك حقيبة حتى!

وقبل رحلتي بساعتين كنت أجلس في قاعة الانتظار، بيميني أمسك قهوة من ستاربكس وبيساري أمسك بهاتفي الذي أضاءت شاشته بإيميل من

(أسامة الأحمد) زوجي الذي أصبحت مضطرّة لمغادرة أمريكا قبل الطلاق منه، لستُ أدري لمَ فتحت رسالته، ولكني فعلت هذه المرة

"السلام عليكِ..

وعد..

في هذا الصباح وقفتُ أمام المرآة وعلى ملامحي ندمٌ متأخر..

إن ظاهر الأمر أنني قد أحرقتُ وجودك بقسوتي..

قد تذكرتُ كل شيء..

تذكرتُ أنك لطالما أحببتِ حرائقي قبل حدائقي، وما تخيّلت قط أن تزيحك تلك الحرائق عن عالمي قط، تذكرتُ بأنك لطالما ضمدتِ حزني بقماش عافيتك، وأنك كنتِ أبسط من أن تجعليني أشعرُ بعصبيةٍ مفرطة كلما ناقشتك حيال أمر ما، كنتِ تتقبلين كلماتي كما لو أنني رسول حبٍ قد جاءك، تثقين بي رغم خياناتي، تتحملين قسوتي وتضعين لها مبرراتٍ أستغرب أنا بحد ذاتي كيفية اختلاقك لها، كنتِ حتى وإن قيل لك بأنني قد حدثت فتاة غيرك قلتِ:

"لا بأس، ربما يود الفضفضة لغريب ما ليس أكثر."

أتعلمين..

لم يكن والدي ليتحمّل أخطائي مثلما تفعلين!

لا زلت أتذكر يا وعد بأنني كنت كلما مرضت تجعلينني أشعر بقربك على الرغم من المسافة الشاسعة ما بيننا في بداية تعارفنا، ترصّين دعواتك لي برسائل جمّة طوال الليل، وحينما تطمئنين علي حالما أستيقظ تستسلمين لمطالب الهالات السوداء المنتشرة ببذخ حول عينيك..

كنتِ تقولين لي مُعلّلة أسباب سهرك:

"أخشى أن تستيقظ من نومك ولا تجد أحدهم يمكنك الاتصال به".
لطالما استغربت حنيتك التي تكاد تصبح خارقة لعادة البشر..
وعد!
أقسم بأن يديّ الخشنة كانت تبدو لي ناعمة كلما فتحت رسالة رقيقة منك..
أما الآن..
وبعد أن تسببتُ بإخراجك من حياتي
فيدي خشنة وقلبي كذلك..
وكل ما ألامسه يظهر لي رثّاً وباردا
وحده وجودك ما كان طهراً ألامسه يحيل عالمي لجنة دافئة..
وحدك من كنت أعدّ لك جراحي لتستبدلينها لي بجرعات فرحٍ دونما طلب مقابل..
وحدكِ من كنتِ تجعلين مني أمراً عظيماً -على الرغم من أني لستُ كذلك- ووحدي بدونكِ لن أكون".
قوّست زواية فمي بسخرية وقمت بالرد لأول مرة عليه بعد أشهر:
"وعليك ما أصبتني يا أسامة..
أما بعد فإني ما كنتُ جلاداً وما كنتَ ضحيّتي، ورقّة مشاعرك هذه المُنبثقة من العدَم فجأة لا تعنيني البتّة".
وبعدها أطفأت هاتفي ككلّ..
تعمّدت عدم إخباره بأنني مغادرة، أردت الهرب منه وحسب، فلطالما خشيت أن ينجح بإعادتي إليه مثل كل مرة، لذا ومنذ قررت الإنفصال الأخير عنه كنتُ أقوم بحذف إيميلاته قبل قرائتها كما وغيرتُ موضع سكني وما وضعت

أي معلومات عن مكان عملي في صفحتي الشخصية على موقع "facebook"

ولكني قرأت رسالته الأخيرة وكأنما أمنح نفسي ذكرى أخيرة منه قبل مغادرتي أمريكا، ذكرى تؤرقني وتزيد من اتّساع جرحي الذي إثره أبقى قيد رغبتي بمغادرة عالمه ككل فأضمن بذلك عدم عودتي له..

انقضت الساعتان بسرعة ليظهر اسم رحلتي على شاشات العرض وأصعد إلى الطائرة مغادرة بحيمه من فوري ومتّجهة نحو بحيم العائلة مجدداً والذي قد يستمر إلى الأبد ربما.

***

إن حقيقة تواجدي مجدداً وسط مجتمع كنت قد هربت من سمومه سابقاً باحثة عن ترياق لأمرٌ في قمّة السّخافة..

من على هذه الرقعة خرجت سابقاً هاربة وها أنا أعود بطواعيتي، كان مطار صنعاء قد أُغلق إثر الحرب المتصاعدة لذا اضطررت للهبوط في عدن وبعدها واصلت السفر براً، جهد مُضنٍ هو ما أصبته للوصول إلى وجهتي، وحينما وصلت إلى صنعاء سرى ارتجاف خوف شديد في جسدي، تراجعت قليلاً عن العودة للديار، لذا قمتُ بحجز غرفة في أحد الفنادق وبقيت هناك، أجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، أطير بألف فكرة وأهبط بألف مثلها، تذكرت كل ألم جسدي أو نفسي قد تسببوا لي به علّي أتراجع عن ذهابي إليهم، كما حاولت إقناع نفسي بأنني قد بتُ ناجحة الآن ولستُ بحاجة لأحد ولكن دونما جدوى..

فما فائدة نجاحي إن لم يكن في صفّ جمهوري يدٌ واحدة على الأقلّ أعرفها تصفّق لي!

ما فائدة نقودي هذه التي ليس لي أي أحد أُشاركه إياها!

قد قطعتُ مسافة طويلة والاستسلام يبدو بعيداً كل البعد عني الآن..

قررت الذهاب..

ولضمان سلامتي استعنت برجلين وجعلتهما حارسين شخصيين، وقفت أمام المرآة أراقب الفروق بين ما كنتُ عليه قبلاً وما سيرونه اليوم وبعدها انطلقت إلى المستشفى

الغرفة رقم 109 هنا من قد جئت بسببه..

طرقتُ الباب بضع طرقات وبعدها دخلت..

حينما لمحني والدي أشاح بوجهه مباشرة ونهض قاسم عن الكرسي إلى جانبه بانفعال عنيف يردّه عني الرجلان برفقتي..

وقفت وسطهم كذنب لا توبة له، قلت بصوت مُرتجف:

- أبي!

لم يصلني رده، فقط صوت قاسم يطالني بالشتائم.. فأردفت قائلة:

-أخطأت بهربي أعلم هذا، ولكنك أب ولي حق بسِعة قلبك.

لمحت دمعة تشقّ خده فبكيت أنا، بكيت كما لم أبكِ من قبل، بكيت وكأنما كل ذنوبهم التي دفعتي عنهم تذوب دفعة واحدة بداخلي وتنهمر..

هو عاجز عن الغفران وأنا عاجزة عن جعله يغفر لي، ضحكت وسط دموعي:

- هل يُزعجك أن جئتك مُحقّقة حلمي؟

مهندسة لي اسمي وكاتبة معروفة.. أيزعجك أن يقول الناس كلما حدثتهم "رحم من ربّاش"!، قوية شخصيتي كأنت، عنيدة مثلك، أتمسك بأي أمر أحبه مهما كانت العواقب.. ولكن.. أثر ضربك لي بالعصا كان يُطبع في قلبي لا على

جسدي، قسوتك جعلتني أنفِر، كنتُ فتاة تربيها الكلمات لا الضرب، تعلمها الحنية لا القسوة، كنت فتاة لا تشبه تلك التي رسمت صورة مغلوطة عنها بداخل رأسك..

ظلمتني وسعيتُ جاهدة لأمنع الظلم عن نفسي خشية أن تكون أنت الظالم..

جنّبتك ذنب الظلم لسنوات واحتملت ذنبي لسنوات مثلها، أتشيح بوجهك الآن عني وأنا التي احتملت قسوة الظروف على أن أسمح لنفسي بكرهك!

فوالله وبالله لأنت أحب إلي من نفسي ولكنني كرهت أن تحاول الحفاظ علي بقمعٍ يغضب الله..

أعتذر.. هذا كل ما أستطيع قوله لك..

التفت ناحية والدتي واقتربت منها مقبلة رأسها وهي لا تحرك ساكناً، وبعدها عدتُ أدراجي وأنا أبتسم بخيبة.. أشرت لصباح بيدي مودعة وطلبت من الرجلين أن يتركا قاسم ويلحقا بي..

بكيتُ ألف دمعة في كل خطوة وبدأت بفقدان اتّزاني حتى سقطت مغشية علي إثر صدمة عصبية.

***

بعد أشهر..

توفي والدي ليكتسح عالمي فراغٌ عظيم، أنا التي ما كنتُ برفقته بقيت أندُب كل لحظة كنتُ بها بعيدة عنه..

كُسر ظهري بموته وهذا أبسط التشبيهات لوضع كهذا.. فالفقد أسوأ ما قد يواجهه المرء خلال عمره..

صفعة قاسية على وجه عمري أفقدتني صوابي، ولعنة بقيت تحدق بي لأشهر بعد رحيله..

صحوت اليوم بروح مهترئة، أمسكت بهاتفي علّي أجد ما يشفع لي فأمارس الحياة من جديد، مئات الرسائل قد تكدّست من القراء وأسامة وصباح..

فتحت رسائل صباح

"أنتِ بخير؟".

"إياك أن تسافري قبل أن أراك، هناك ما أود إخبارك به".

"أين أنتِ؟".

"سأرسل لك عنوان منزلي أرجوك أن تأتي".

تنفّست الصعداء وأرسلت لها بأنني قادمة ونهضت عن مكاني، وضعت الوشاح على رأسي وأنا أراقب شحوب ملامحي على المرآة وبعدها انطلقت، وقبل أن أطرق الباب وجدتها تفتحه، على الأغلب كانت ترقب حضوري من على النافذة كما هي عادتها منذ الطفولة..

كانت تبتسم وفي يدها طفل لم يتجاوز العام..

احتضنتني بقوة وهي تقول باكية:

- سامحك والدي، سامحك، هذا ما قاله لي قبل أن..

قُطعت جملتها لأقول بملامح مُتبلّدة:

- قبل أن يموت!

أغمضت عيني بعدها وأخذت شهيقاً وأنا أراقب السقف بمحاولة لمنع دموعي..

بقيت أكرر "رحمك الله يا أبي! رحمك الله!".. بينما يتصاعد صوت صباح

وهي توجهني إلى إحدى الغرف بالمنزل وبعدها تواصل حديثها:

- وأمي تسامحك رغم ألمها من بعدك.

مسحت دموعي وجلست:

- وقاسم!

- لن يتغير، لا يزال يتعامل بفوقيّة كما لو كان إلهاً.. جميعنا نتجنّبه وحسب..

هززت رأسي إيجاباً لتردف قائلة وهي تشير للطفل بين ذراعيها:

- بالمناسبة هذا أحمد طفلي الثاني.

شهقت بصدمة:

- الثاني!

ضحكت:

ـلِأُنجب عشرة قبل عمر العشرين على أن أبقى في منزلنا، هذا ما قلته لأمي عندما تقدّم عامر لخطبتي، ولكن لا تصدقي هو الأخير.. يكفينا هو وأخته.

بقيت ألعب مع طفليها بينما هي تسرد لي كل الأحداث القائمة في غيابي، مشاكل المنزل، التغييرات الطارئة في القرية، تفاصيل زواج قاسم، وزوجته التي سيعينها الله عليه حسب قولها، وإصابة أمي بالضغط والسكري، تفاصيل زواجها من عامر وحثّه إياها على إكمال دراستها، وما كان له وقع تأثير عليّ حقاً أن طفلتها الأولى قد سُميت "وعد" ضحكت لحظة أخبرتني وقلت:

- ألم يعارضك أحد على هذا الإسم؟

- بلى عارضوا في بادئ الأمر ولكن لم يعد لأحد سُلطة على اختياراتي لذا ما كان منهم إلا أن يتقبّلوا في نهاية المطاف.

وصلتها رسالة لحظتها فنهضت وهي تمسك بيدي وتحثني على الخروج:

- إنها "هدية" زوجة قاسم، قاسم غادر القرية للتوّ وسيبقى هذه الليلة بالمدينة لقضاء غرضه، يمكنك رؤية أمي هيا بسرعة.

لهفة شوق بداخلي جعلتني أسرع إلى استئجار سيارة وبعدها أنطلق إلى القرية..

الخطوات الأولى في المنزل كانت تُشجّع على البكاء، لا يزال كل شيء كما كان، الأثاث القديم نفسه بنفس الألوان، وال "نوّارة" لا تزال معلقة في وسط الحجرة كما كانت، الشبابيك الخشبية قد باتت مهترئة أكثر ولكن هذا لا يقلل من جماليتها..

سمعت صوت والدتي وهي تخرج من المطبخ وترفع رأسها قائلة:

- من هناك..

وسرعان ما امتلئت عينيها بالدموع، اقتربت منها أحتضنها وأنا أستنشق رائحتها كما لو أنها الجنة التي عشت على أمل أن أراها..

بقيت تتلمّس وجهي بيدها التي تملأها التجاعيد وكأنما تتأكد وهي تقول بصوت مهتزّ ينم عن كبرها:

- وعد، هذه أنتِ!

يوم كامل قضيته برفقتها بعد سنين من الغياب، رأسي الموضوع في حجرها ويدها التي مسحت على رأسي ليلتها كانت كفيلة بحل كل ما ألمّ بي، ولكن كان عليّ المغادرة في صباح اليوم التالي لأن قاسم قد يعود كما قالت هدية..

نهضت بروح خفيفة جداً..

والدي قد غفر لي قبل موته..

ووالدتي لا تزال تُحبّني..

وأختي الصغرى لم تتأثّر بسوء الظروف كما أنا..

وقفت أمام البيت وزفرت سمومي كلها وبعدها خرجت من البيت أطير مسافة عشرة أمتار عن الأرض ودعوات والدتي ترافقني من خلفي..

لم أكن أدرك أي وجهة سأسلك وقتها، ولكنني وبدون شعور مني وجدتني أقف إلى جانب الشجرة التي قابلت أسامة أمامها لأول مرة، مؤسف هو تساقط أوراقها فقد كانت جميلة جداً..

نزلت من على السيارة ووقفت إلى جانبها، هبطتُ وجلست بمشهد مشابه للسابق وامتلأت بالحزن مجدداً، تلمّست دموعي بأصابعي التي قد بترتها عوضاً عن عضها ندماً وحسب، راقبته وهو يخرج من المنزل أمامي مثل المرّة السابقة، مرتدياً نفس الجاكيت الباهظ الثمن، ارتسمت ابتسامة خذلان على ملامحي وانكفأت على ركبتي وأنا أبكي..

يد واحدة أمسكت بكتفي لحظتها أعرف لمستها

وصوت أدرك تفاصيله تماماً يناديني:

- وعد!

إنها له.. النبرة أثارت بي رغبة بالبكاء، خيالاتي تخرج عن السيطرة حد أني بدأت أستشعرها واقعاً لذا فكرت لحظتها بالمغادرة إلى أي مكان آخر، كمصر مثلاً، لا أريد العودة إلى أمريكا ولا أريد البقاء في اليمن سأكتفي بزيارات لأهلي بين الفينة والأخرى وحسب، رغبت بمكان جديد علّي أبدأ حياة جديدة وأصنع ذكريات جديدة غير تلك التي باتت تجرّني خلفها كمهزومة..

رفعت رأسي وأنا مغمضة عينيّ وأجاهد أنفاسي بصعوبة، فتحت عينيّ بعدها ووجدته جالساً أمامي حقيقة وهو يبتسم، رفع يده ليمسح دمعي ولكني

لفظتها عن وجهي بخوف ونهضت من على مكاني وركبتُ في السيارة..
اقترب وقتها من السيارة وهو يقول ضاحكاً:
- لا أمتلك عقداً لأهبك إياه ولكن هل يمكنني مُرافقتك؟
ضحكت رغماً عني وهززت رأسي إيجاباً..
شيء ما بداخلي دفعني للقبول لحظتها ولستُ أدرك ماهيته..
جلس على الكرسي إلى جانبي وبقينا صامتين لمدة طويلة قبل أن يقول:
- ألسنا نعيد نفس السيناريو أم أنه يبدو لي كذلك وحسب؟
ابتسمت:
- في الحالتين ليس لدي ما أقوله.
- وصلت قبل بضع سويعات إلى القرية.
لم أعلق فأردف يقول:
- جئت للبحث عنك.
ركنت السيارة في أحد الشوارع ودون أن ألتفت تساءلت:
- هل كنتُ ضائعة لتبحث عني؟
- وعد!
- لستُ ضائعة يا أسامة، أنا فتاة قد تخليت عنها أنت سابقاً وها أنا أتخلى عنك الآن، كما ترى ليس في الأمر ما يستدعي البحث عني.
استجمعت قواي مجدداً وطلبت منه أن يترجل عن السيارة، ليضع لي ظرفاً وهو تقول:
- حسناً هذا هو ما أردت إحضاره لك بما أنك لم تعودي تستقبلي رسائل الإيميل خاصتي.

التقطته من بين أصابعه على مضض وتركته يرحل، رميت الظرف بداخل حقيبتي وأنا أُبرم صفقة مع نفسي بأنني لن أقوم بفتحه مهما كلفني الأمر وغادرت من فوري.

***

من مذكرات أسامة

احتشَدت ألف غُصّة في حنجرتي وقت غادرتُ السيارة، شعرت باعوجاج في روحي لن يساعده على الاستقامة مجدداً سواك، بدوتِ متخلّية عني بكل حواسك، بدوتِ كأنما قد أصبح يروقك هربك ذاك، آذتني قوّتك للحظة.. وتمنيت لو أن التي أمامي وعد القديمة لتبتلع عني غصتي وتكون لي استقامة كاملة أستند عليها..

من قال أن الحب أعمى يا وعد وأنا الذي ما أبصرت إلا بك!

كنتُ أبصر بحضورك الذي يحرق كل ما يؤذيني، أما الآن فأنت غائبة والحرائق التي خلّفتها وراءك خارجة عن السيطرة تلتهم كل شيء دون رحمة وتكاد تلتهمني..

الأدخنة تتصاعد وأبقى مجبراً على إغلاق عيني بسببها..

الحب ليس أعمى يا وعد بل الفراق كذلك..

وسط صمتنا الذي قد بات يرعبني وهبتك رسالتي الأخيرة..

لتختاري أنتِ وتقرّري..

فلطالما قلتِ بأنني ما منحتك حق الاختيار بعد زواجنا وأنني كنت مجرد مخادع قبل ارتباطنا، أتنازل عن الكثير حتى ضمنت قبولك بي وبعدها جلدتك ب "أسامة" القاسي هذا..

ولكن..
لأسامة هذا ماضٍ جعله يحترفُ الخِداع جيداً
أتعلمين ما هو الأسوأ حقاً!..
هو أنني خدعت نفسي كذلك..
خدعت نفسي بأنك زائد لا أحتاجه
والآن ها أنا أعايش خدعتي هذه خائفاً.

الفصل الخامس عشر

وعد

الصّفقة المبرمة مع نفسي استمرت لفترة طويلة، الظرف لا يزال بداخل الحقيبة التي أشعر وكأنما بداخلها جحيم ستصيبني لفحاته الحارة إن أنا اقتربت منها..

مضى الشهر الأول

وانقضى الثاني

الثالث كذلك انتهى

وها قد وصلت إلى منتصف الشهر الرابع..

أمرر أصابعي على الظرف وأفكر بالقدر المنكتِب لي بداخله..

أفتحه ببلاهة باحثة عن دليل يثبت أنه قد أَحبّني على الأقل وأني ما كنتُ مجرد غباء حاضر في ساحته وأنا أصدّ كل كذبة، وأعيش على أمل مُنصرم عهده منذ زمن طويل..

قطعت طرف الظّرف وابتسمت بحزن واضح..

أطبقت أسناني وابتلعتُ غصّة خوفي وبدأت أقرأ...

"طفلٌ في السابعة من عمره، لا يدرك أسباباً للشّجارات المتكررة بين والديه، فقط يجلس وراء الباب مغلقاً أذنيه بسبب الأصوات المتعالية، ينفصل والديه فجأة ويُترك لدى والده ليعيش وحدته وسط الزحام، حزن الانفصال كان مجرد بذرة حاول التغاضي عنها ودفنها، ولكن كل كلمة قاسية سقَت هذه البذرة

لتكبر، تكبر البذرة أكثر بكل سلبيّة حياته فيصبح من الصعب تحكمه بها، يزور والدته فتعطِف عليه، يعود لوالده فيقسو بحجة أن والدته تُفسِد تربيته، يتذبذب بين الأمرين، يرزق بإخوان من والده، يحصلون على كل شيء ويُحرم هو من كل تلك الأشياء بالمقابل، يكبر ويكبر ويكتشف فيما بعد بأن سبب الانفصال كان خيانة والده، يكره الجميع حين غرة، يشعر بأنه منبوذ من العائلة فيقرر الذهاب للدراسة في الخارج، وأنت أكثر من يفهم معنى الغربة، شعور نقص زائد فوق شعور النقص الأول، طفل كبر بداخل قوقعة ضيّقة ليؤذيه الانفلات بعدها، طفل عاش وغالب قراراته ليست ملكه لتهتز اختياراته في كل شي بعدها، طفل عاش صدمات الطفولة من كل الأماكن التي كان عليها أن تطمئنه ليهرول مبتعداً عن كل الأمور المشابهة بعدها، الطفولة أساس مكتمل للبعض، وسبب كافٍ لرسم سير حياتهم بأكملها..

أنا أضعف مما تتوقعين يا وعد..

أحاول فقط إظهار قوتي من خلال تحجيم من حولي..

أتّخذ قوانين المجتمع وأفكارهم حتى أبدو قوياً بسيطرتهم الخاطئة تلك وأخفي هشاشتي وضعفي في كنفها..

أحاول الحصول على أشخاص يهتمون لأمري حتى أثبت بأني لستُ منبوذاً..

وبعدها أهرول لئلا أترك فرصة للتخلي عني..

ضحيّة طفولتي أنا يا وعد، وضعيف أنا أن سمحت لنفسي بأن أكون ضحية..

حاولت التغيّر ولكنني كنتُ أصبح مسموماً أكثر كلما حاولت..

لذا ابتعدت..

ابتعدت عنك وأنا أحبك لأني خائف، خائف أكثر مما تتصوّرين، ولا بد أن فتاة بعقلية فذّة كما أنتِ قد أدركت ولو جزئية من هذا الأمر..

رفضي الحديث عن عائلتي..

دخولي بعلاقات كثيرة وخروجي منها بسرعة..

وهرولتي عن طهر قلبك..

ساعديني لأتغير فلا رغبة لي بتربية روبن وأنا مُتعب هكذا، أرجوك عودي لتصوّبي خطئي بحقك وأعدك أن أحاول بقوة أكبر هذه المرة"..

ودعت الرسالة لتتهاوى ناحية الأرض بعد قرائتي لآخر حرف فيها، وبعدها نهضت عن مكاني وغادرت مباشرة، كنت قد أخبرتني بأنكَ قد عدتَ إلى أمريكا في إيميلك الأخير لذا حجزت أقرب طائرة مغادرة وبعدها عدتُ أجمع حاجياتي استعداداً للسفر نحو عدن أولاً..

قضيت طريق السفر بأكمله أفكر في كل ما مررنا به وختمت نهاية الطريق ببضع طرقات على باب غرفته، يظهر بعدها وجهه مشدوهاً لحضوري بعد كل تلك الأشهر، لأبتسم له بحب وأنا أقول:

- اشتقت لروبن!

ضحك بدوره:

- ووالده؟

راقبت عينيه وبعدها احتضنته وأنا أهمس باكية:

- لطالما فعلت!

النهاية

ربما يبدو الحبّ قاسياً كما يبدو الفراق مرحلة أقسى، ولكن وقوعك وسط قصة يُحبك فيها أحدهم بكل ما أوتي من حنيّة تكون عندها قد أخذت نصيبك مكتملاً من النعم، تلك أنا، حتى تفكيري بالانتقام وقت فراقنا كانت مجرد أحرف أدرك بأنها لن تطبّق، كلمات يجرحني حدة كذبي فيها، أحاول إظهار الأمر مغايراً لمن حولي، فلطالما طلبوا مني مغادرة ساحته!

لذا غادرتها وأنا راغبة بتجنب أسئلتهم عما إذا كنتُ سأعود أم لا..

أخذت الانتقام كأداة رادعة لسؤالهم..

فهل يعقل أن تفكر بالانتقام من لا زالت راغبة بالعودة!

لمحوا حبي له في كل مرّة، لمحوا الحزن على وجهي، لمحوا محاولاتي قبل أن أصيبها حتى لذا فكّرت بدحضهم عن رقعتي وإياه لبعض الوقت، أزحتهم بغضب مُصطنع، أمسكت بسكين الانتقام أمامهم، وبيني وبين نفسي كنت أفكر بقتلهم الواحد تلو الآخر..

نرجسي هو إذاً!

وسيصعبُ عليّ العيش برفقته!

حسناً، فليكن، هو نرجسي يحب نفسه وأنا نرجسية كذلك وأحب نفسي..

ولكني أقصد نفسي الممتلئة به..

هو نرجسي يعجز عن التحكّم بالقدرة على أذيّة من حوله، وأنا نرجسية بحبه كل ما يهمني هو أن لا يتأذى من بداخلي والمتمثلين كلهم به..

هو نرجسي ولكن قد يلين، ليس ذنبه أن عاش طفولة قاسية ومشتّتة جعلته يستهلك كل عاطفته مبكراً، لم يكن له ذنب أن خاطروا بكل شعوره حتى أفقدوه إياه، ليس ذنبه أن عاش كل ذاك الخوف حتى بات كل همّه الشاغل هو أن تطمئنّ نفسه..

تألمت..

أجل ولن أنكر هذا، ولكنني تألمت لأجله أكثر من ألمي على نفسي..

مؤلم جداً أن يتألم من نحبهم، مؤلم أن يحترق قلبهم ونحن نقف بعجز مميت..

كلانا كنّا أصحاب بدايات قاسية

وكل ما كنت أفعله هو أنني أحاول إثبات أننا نستحق نهايات أفضل بعيداً عن كل كأس سمّ تجرّعناه بداية عمرنا..

انفصال والديه وبقاء والدي قيد شجار..

خيانة والده وحريتي المسلوبة..

قضاؤه أياماً تعادل بسوئها سوء جهنم

وقضائي أياماً تمنيت بها لو أنه لم يكن لي وجود حتى..

عايش جفاف دموعه لوحده وعايشت انسكاب دموعي محتملة الغرق وحدي..

تعرّض لتعنيف نفسي من والده وتعرّضت لتعنيف جسدي يفوق الذي تعرّض له شدة..

لحظة واحدة فقط هي ما توقفت عندها بالشعور بكل سوء حياتي تلك..

"حينما قابلته"

وقتها فقط شعرت بي أتنفس أكسجيناً خالٍ من سموم الحياة..

مُحيت كل الظروف التي مررت بها..

والأرض التي كنت أجاهد للمشي عليها شعرت بها لوهلة تحملني كطفل فقدته منذ القدم وآن أوان منحِه راحة أبدية..

انتظرته كثيراً..

حتى أني ولبعض من الوقت بدأت بتصديقهم أنه ما كان سوى شبح عابر كل ما أراده هو أن يحمّلني سوء كوابيس انتظاره

ولكنه هنا..

يختبئ رأسي في صدره

يستمع لنبضه الذي يثبت لي بأنني قد عدت للحياة مجدداً..

يخبرني بصوته المبحوح أنه كان خائفاً ولكنه يريد الاطمئنان أخيراً، يعترف بأنه غيرُ قادرٍ على الاهتمام بي كما يجب أو أن تعطيني كل ما أرغب الشعور به وأخبره في المقابل أن بقاءه يكفي..

أن الفراق ما انتصر علينا بعد كل هذه السنين فهذا كل ما يهمني..

يلتصق بي بخوف اللحظة وهو يهمس:

- أحبك لكنني خائف مني، لم أرِد أن أجرّعك سم الحزن لكنني السم بحد ذاته، أخافني وأخشى أن أصيبك، شعرتُ بخطري عليك لذا رحلت، رحلتُ لأنني أحبك وعدتُ لأن ما غير حبك سينقذني، كوني معي، لا تتركيني لنفسي هذه الأمّارة بالهرب من كل شيء، أتفعلين هذا من أجلي!

أراقب عينيه :

- أسامة، رحمي المهترئ هذا الذي ما أنجب لي طفلاً قد صلى للحياة أن

تهديني آخر من رحمها فجاءت استجابة الدعاء على هيئتك، أتترك أماً وليدها بعد أن طلبته بكل تلك الحفاوة!.. أفعل ما هو أكثر من هذا لمجرّد أن يتخلّل الموضوع أمراً يخصّك.. اترك نفسك لي وحسب..

***

مرت ثمان سنوات من وقتها، والآن ها نحن ذا..

رجلٌ قد ترك غالب سموم المجتمع والماضي خلفه..

وفتاً أسعى جاهدة لإبعاده عن كل ما قد يمسّ رجولته..

وإن ظُلمتُ في الماضي من الرجال

فإن انتصاري برجلين الآن يكفي، هذا كل نصري الذي لطالما سعيت له لأقابله وقت تشابكت يدي بيده!

***

"كن أنت التّغيير الذي ترغَب برؤيته".

-غاندي.